الحَديقَةُ السِّرِّيَّة



فرنسيس هودجسون بورنت

الحَديقَةُ السِّرِّيَّة






سفير

١٦ ش محمد عز العرب من ش القصر العيني

ص.ب: ٤٢٥ الدقي - القاهرة

ت : ٢٥٣٢٩٩٠٢ -٠٠٢٠٢ فاكس : ٢٥٣٢٩٥٠٥ -٠٠٢٠٢

Tel: 00202- 25329902 - Fax : 00202-25329505

E-Mail: info @ Safeer.com.eg

Web Site: www.safeer.com.eg

للفتيان والفتيات

الحَديقَةُ السِّرِّيَّة

فرنسيس هودجسون بورنت

تأليف
(فرنسيس هودجسون بورنت)

والذى توفي سنة ١٩٢٤م

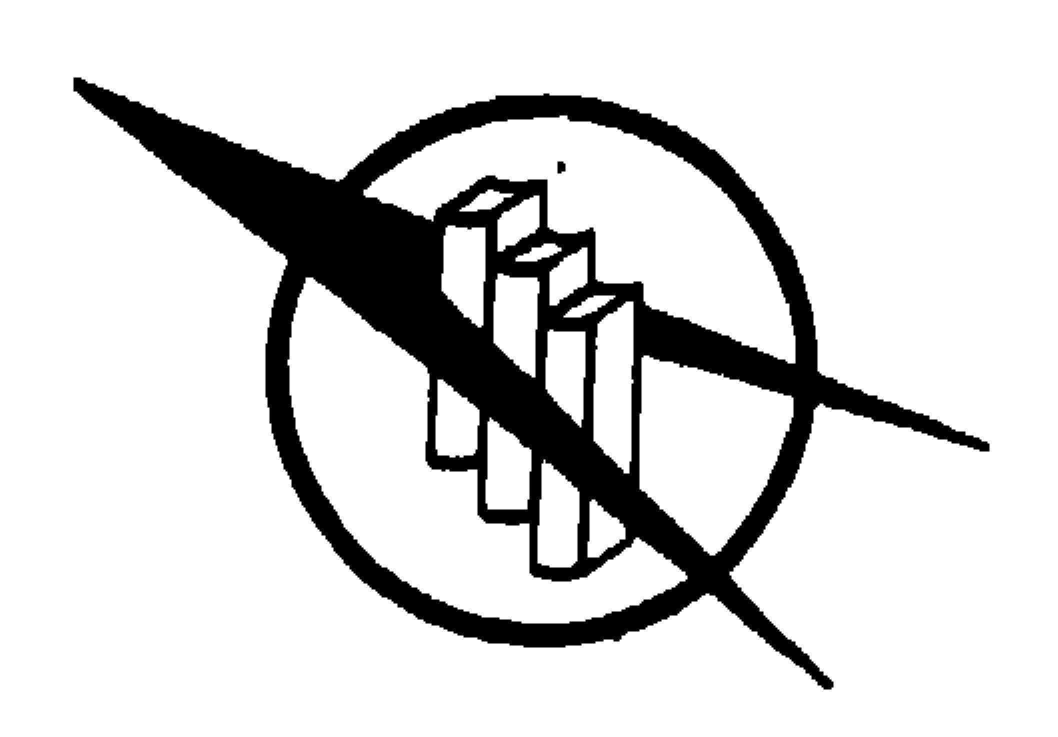
ترجمة واختصار
(سيما ياسين)

This book was authored by "Francis Hodgson burnett" who died in 1924, and now this book is in the public Domain, and it has no copyrights.
It was adopted and abridged by "Sima Yassine".

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com





2007/16456
ISBN: 977-361-559-6

لم يبق أحد

عندما وصلَتْ ماري لينوكس لتعيشَ مع عمّها في «ميسيل ثويت» دُهِش كلُّ مَنْ رآها لشدَّةِ قُبْحِها. كانت قصيرةً ونحيلةً.. شعرُها أصفرُ ووجهُها أصفرُ شاحب. شغَلَ والدُها منصبًا ذا شأن لدى الحكومة البريطانية وكان مُنهكًا بالعمل. أما أمّها فكانت رائعة الجمال، ولا تهتَمُّ إلا بحضورِ الحفلات والاستمتاعِ بتمضيةِ الوقتِ مع معارِفِها. لم تكنْ تريدُ تلكَ الطفلة. وعندما أنجبتْ ماري عَهِدَتْ بها إلى مُرَبِّية اسمُها آيا، كان يُطْلَبُ منها أن تُبقي الطفلةَ بعيدةً عن ناظريها. ولم تكنِ الطفلةُ بدورها ترى إلا وجه آيا ووجوهَ الخدم السوداء من حولها. ونشأتِ الطفلةُ على العُزلَةِ والأنانيّة، وهذا ما جَعَلها سيئةَ الطِّباع تَنفرُ منها جميعُ مُدَرِّساتِها.

عندما كانتْ في التاسعةِ من عمرِها استيقظتْ ذاتَ صباحٍ قائظ فلم تجدْ خادمتها آيا قُربها. واستغربتْ لوجودِ خادمةٍ أخرى جديدة. قالت لها الخادمة: «إن آيا لن تأتيَ بعدَ اليوم». كان يَسُودُ البيت جوٌّ من الغموض ذلك اليوم، وقرأتْ ماري علامات القلقِ والوجومِ على وجوهِ مَن حولَها. شعرت بالوحدة فخرجت تتلهّى في الحديقة. وفيما هي واقفةٌ تحتَ الشُّرفَةِ سمعتْ والدتها تتحدّثُ مع شابٍّ وسيم

بصوتٍ خفيض. كان الشاب الّذي عَرفته ماري ضابطًا صغيرًا وصلَ توًّا من إنجلترا. وبدت لها أمُّها الّتي كانت تدعوها «ميم ساهيب» شديدةَ الأناقةِ والجمال ذلك الصباح. وسمعتْها تسألُ الشاب: «هل الأمرُ على هذه الدرجة من السّوء؟»

أجابها الشاب بصوت راعش: «الوضعُ سَيِّئ جدًّا. كان عليك أن تُغادري إلى المرتفعاتِ الجبليّة قبل أسبوعين». وقطع عليهما حديثَهما أصواتُ عويلٍ وصُراخ مما جعل الأم تُهَرْوِل إلى الداخل.

حدثتْ بعد ذلك أشياءُ مُرْعبة. وانجلى الغموضُ لماري عندما علمتْ أنَّ وباءَ الكوليرا قد اجتاحَ المنطقة على نحو مُرَوِّع، وأنَّ النّاس يتساقطون فريسةَ المرض كالذُّباب. وعرفت أيضًا أنَّ سببَ عويلِ الخَدم هو وفاةُ مُربِّيتها آيا بذلك الدّاء. وسرعان ما لحقَ بها ثلاثةٌ من الخدم مما جعل الآخرين يفرُّون رُعْبًا.

في هذا الجو من الذُّعر والاضطراب انزوت ماري في حجرة نومها، حيثُ نسيها الجميع. وكانت خلال ذلك الوقت تبكي ثم تنامُ لساعاتٍ طوال دون أن يَدْري بها أحد.

حدثت أشياءُ كثيرةٌ أثناءَ نوم ماري الطّويل والعميق. وعندما استيقظت كان يُخَيِّمُ على المنزل صمتٌ لم تَعْهَدْه من قبل. لم يكن ثَمَّةَ أصواتٌ أو حتى وقعُ أقدامٍ. وراحت تُفكِّر فيمن سيُعْنى بها بعد وفاةِ آيا. لم يكن يُحْزِنها موت مُربِّيتها. فقد كانت طفلةً غيرَ ودودة لا تأْبَهُ لأحد.

وسط أجواءِ الفَزَعِ كان الجميع في شغلٍ شاغلٍ عنها. ولم يَطْرقْ بابَها أحد. وكان البيتُ يزداد صمتًا وسكونًا. لم تسمعْ ماري إلا صوتَ هسيس. كان هسيسَ حيّة صغيرة تسعى. ولم تَخَفْ ماري واعتبرتها كائنًا صغيرًا لا ضررَ منه. ثم سمعت وقعَ أقدامِ رجالٍ يدخلون البيت ويتحدّثون بصوتٍ مُنخفض. وسمعت صوت أحدهم يقول: «إنها امرأةٌ جميلة! وأظنُّ أنَّ طفلتَها كذلك. سمعتُ أنَّ هناك طفلةً، وإن لم يَرَها أحد!».

كانت ماري تقفُ في وسطِ الغرفة عندما فتحَ أحدُهم الباب. بدت عابسةً غاضبةً من جَرّاءِ شعورِها باليأسِ والإهمال. مدَّ أحد الرجال رأسَه ثم لم يلبثْ أن ارتدَّ مذعورًا. وصاح في زميلٍ له: «بارني.. هُناك طفلة.. وحيدة.. في مكانٍ كهذا! رُحْماكَ يارب.. من تكونُ هذه؟!».

قالت الطفلة: «أنا ماري لينوكس. كنتُ نائمةً عند إصابةِ الجميعِ بالكوليرا، وصحوتُ لتوّي. لِمَ لا يأتي أحد؟»

نظر بارني إليها بحزنٍ شديدٍ وقال: «يا للمسكينة.. لم يبقَ أحدٌ في البيت كي يأتيَ إليك».

أدركتُ الطفلةُ المسكينةُ أخيرًا سرَّ السُّكونِ الرهيب من حولها.. لقد فقدتِ الجميعَ، ولم يبق أحدٌ على قيدِ الحياة.

ماري المُشاكسة

لم تكنْ ماري تشعرُ بالمحبّة نحو والدتها أو تشتاقُ إليها. ولم تكنْ تُفكّرُ بحكمِ انغلاقها على نفسها إلا بذاتِها، أو بمَنْ يهتمّون بها مِن حولِها مثل مُربّيتها آيا وباقي الخدم. ولم تكنْ ماري راغبةً في البقاءِ في منزلِ القسّيس البريطاني، فقد كان هذا فقيراً ولديه خمسةُ أطفالٍ في أعمارٍ متقاربةٍ، وكانوا كثيراً ما يتشاجرون ويتخاطفون الألعابَ فيما بينهم، كانتْ تكرهُ منزلهم الّذي يفتقر إلى الترتيبِ، وتكرهُ بشكلٍ خاصٍّ من بين هؤلاء الأولاد الطفلَ باسل الّذي كان يَتَعَمّدُ إغاظَتَها بأغنية عابثةٍ تُثير سخريةَ الجميع منها.

عرفت ماري من باسل أنّها سترحلُ قريبًا إلى إنجلترا، وهو ما كانت تتوقّعه، لتعيشَ مع عمّها السّيد أرشيبالد كريفن. وحدّثها باسل عن عمها الّذي لا تعرف عنه شيئًا، وأخبرها أنّه يعيشُ في منزلٍ قديم وكبير، وأنّه رجلٌ سيئُ الطّباع لا يجرؤ أحدٌ على الاقترابِ منه، كريهُ المنظر، أحدبُ الظّهر. اغتاظتْ ماري مما سمعتْهُ عن عمها ولم تشأْ أنْ تسمع المزيد.

كانت ماري نَفورةً بطبعها وكانت تُشيحُ بوجهها كلما همّت السيدة كروفورد بتقبيلها. وازدادت نفوراً عندما أخبرتها تلكَ السّيدةُ عن قربِ

رحيلها، الأمرُ الّذي أشعرَها بالغمِّ والكآبة. واستهجنتِ السّيدة كروفورد هذا السّلوك وقالت لزوجها: «إنّها حقًّا فتاةٌ مُشاكِسةٌ كما يصفُها الأولاد».

كانتْ رحلةُ ماري الطويلةُ إلى إنجلترا تحت رعايةِ زوجة ضابطٍ كانت ترافق طفليها إلى مدرسةٍ داخلية، حيث سيكونان في رعاية مُدَبِّرةِ المنزل السّيدة ميدلوك الّتي تعمل في منزل أرشيبالد كريفن في «ميسيل ثويت»، وهي سيّدةٌ بدينةٌ ذات خدَّين مُوَرَّدين وعينين ثاقبتين.

كانتْ ماري تجلسُ قرب النّافذةِ تُراقبُ السّيارات والحافلات في سيرها عندما كانت السّيدة ميدلوك والسّيدة كروفورد تتحدّثان عنها، وكانت تَسْمعُهما عندما قالت إحداهما للأخرى: «إن صورةَ الفتاة وطبيعَتَها سوف تتغيّران عندما تكبر». ولكنَّ ماري كانتْ مشغولةً عن ذلك الحديث تُفكِّرُ في عملها الّذي ستُقيم عنده. كانت تشعرُ بالوحدةِ بعيداً عن آيا، وتنتابها أفكارٌ غريبة. وشعرتْ بغربةٍ شديدة. لم تشعرْ بالانتماء حتّى إلى والديها عندما كانا على قيدِ الحياة مثلما يشعرُ سائرُ الأطفالِ. كانَ لديها الكثيرُ من الخدم ومن الطّعامِ والملابس غير أنّها لم تكنْ تحظى باهتمامٍ من أحد. ولم تكنْ تعلم أنَّ مصيبتها تكمنُ فيها هي.. في سوء طباعها. كانت تظن أنَّ مَن حولَها هم السّيئون وليست هي.

واعتقدتْ أنَّ السّيدة ميدلوك هي أشدُّ النّاسِ سُوءاً، لذا كانت أثناء رحلتها إلى «يوركشاير» تتعمّد الابتعاد عنها قَدْرَ الإمكان حتى لا يظنَّ

النّاسُ أنَّها ابنتها. أمّا السّيدة ميدلوك فقد قبلت المُهِمَّةَ الّتي كلّفها بها السّيد أرشيبالد كريفن من دون أن تطرحَ أسئلة. قال لها السيد أرشيبالد: «إنَّ الكابتن لينوكس شقيق زوجتي وأنا راعي ابنته الّتي ينبغي أن تُربَّى هنا. اذهبي إلى لندن وعُودي بها». وسرعان ما حَزَمت السّيدة ميدلوك حقائبها وشرعت بالرحلة لتُنَفِّذَ المُهمَّةَ الّتي أُوكِلتْ إليها.

بقيتْ ماري طوالَ الرحلة صامتةً هادئةً. وبدتْ بَشَرَتُها شديدةَ الشّحوبِ وهي ترتدي ملابسَها السّوداء. وأثناء الرّحلةِ سألتها السّيدة ميدلوك ما إذا كانتْ تعلم شيئًا عن عمِّها، فأجابتها ماري بالنفي من دون اكتراث. فقالتْ تُهمهمُ وهي تنظر إلى وجه الفتاة الغريب غير المُعبِّر: «لابدّ أن تعرفي شيئًا عن منزل عمك، وأن تُعدّي نفسك، فأنتِ ذاهبةٌ إلى مكانٍ غريبٍ. إنه قصرٌ فخمٌ كئيبٌ يعود عمره إلى ستمائةِ سنة خلت، ويقع على حافةِ بَرِّية واسعة، وفيه مئات من الغرف معظمها موصدُ الأبواب، وفيه الكثيرُ من الصور والأثاث الفخم وأشياء تعود إلى عهود قديمة، وتُحيط بالقصر حدائقُ وأشجارٌ كثيفة». كانت ماري تصغي لحديث السّيدة ميدلوك بغيرِ اهتمام. وبدا لها كلُّ شيء مختلفًا عن موطنها الأول.. الهند، لذا بقيتْ صامتةً طوالَ الوقتِ. إنّها لا تعرفُ شيئًا عن أماكنَ كهذه على الإطلاق.

تابعتِ السّيدة ميدلوك حديثَها عن سيّد القصر وقالت: «إنّه

رجلٌ أحدبُ، لم يستفدْ من أملاكِه وقصره المنيف إلى أنْ تزوّج».
استغربْ ماري أن يتزوّجَ رجلٌ أحدب فراحتْ تُصيخُ السّمع إلى مُحَدِّثَتِها الّتي شعرت أنَّ ماري بدأت تهتمُّ بحديثها. تابعت السيدة ميدلوك قائلةً: «كانت زوجتُه امرأةً جميلةً. واعتقدَ النّاسُ أنّها تزوجته من أجلِ ثروته». ولكن السيدة ميدلوك نفتْ بإصرارٍ مثلَ تلك الأقاويل. وحين أخبرَتها أنَّ تلك الزوجة تُوفيت وهي في ريعانِ الشّباب استغربتْ ماري هذه النّهاية. وقارنتْ بينها وبين حكاية فرنسيةٍ خُرافية كانتْ قد قرأتها. وتابعتِ السّيدة ميدلوك حديثَها وقالتْ: «وبعد ذلك اعتزل السّيد أرشيبالد النّاس، ولم يكن يحادث أحدًا عدا بتشر الرجل العجوز الّذي كان يرعاه».

لم تَرُقْ تلكَ القصّةُ لماري وشعرتْ بالغمّ. قصرٌ قديم يضمُّ مئاتِ الغرف، ورجلٌ أحدبُ وحيدٌ يعيش في حُزنٍ وعُزلة! وتخيّلت لو أنَّ زوجتَه ما زالت على قيد الحياة، إذنْ لشاعتِ البهجةُ في أجواء المنزل.

قالت لها السّيدة ميدلوك بأنَّ عليها أن تتوقّع ألا يُكَلِّمُهَا أحد، وأنَّ عليها أنْ تعتمدَ على نفسها. وهناك من سيُخْبِرها بالغرف الّتي يمكنها أنْ تدخلها أو الّتي ينبغي ألا تدخلها. وشعرت ماري بالأسى والحزن على عمِّها الّذي لا يستحقُّ ما جرى له. والتفتت إلى النافذة وراحت تتابعُ العاصفةَ المُشبعة بالمطرِ وكأنّها لا تريد أنْ تنتهي. ثم أغلقتْ ماري عينيها واستسلمت لنومٍ عميق.

عبر البرية

استيقظت ماري من نومها العميق، وتناولت طعامَ الغداء مع السّيدة ميدلوك. وعندما توقّف القِطارُ عند محطة « ثويت » الصغيرة كان الظلامُ الحالكُ قد أرخى سدولَه. وعندما نزلت الاثنتان من القطار قال مديرُ المحطة للسّيدة ميدلوك بلهجة يوركشاير بأن ثمَّةَ عربةً بانتظارهما. كانتْ عربةً فخمة، وعندما تقدّمت ماري منها وجدت رجلاً أنيقًا يرتدي معطفًا واقيًا من المطر يَمُدُّ يدَه ليساعدَها في الولوجِ إليها.

غاصت ماري في مقعدها الوثير في العربة، إلى جانب السّيدة ميدلوك وراحت تتطلّع من النّافذة. وسَرَح تفكيرُها من جديدٍ في المكانِ الغريب الذي حدَّثَتها عنه المُربِّية. قالت ماري في نفسها: ما الّذي يُمْكِنُ أن يجريَ في منزلٍ ذي مائةِ غرفة معظمُها مُغلقٌ يقعُ عندَ حافة البرّية! ولم تجدْ نفسَها إلا وهي تسألُ المربيةَ فجأة: « أعند حافةِ البرّية؟ » فأجابتها السّيدة ميدلوك: « دقائق قليلة وسوف تَرين ذلك بنفسك. بيدَ أن الظلامَ الدّامس لن يُمَكِّنَك من أنْ تشاهدي الكثير ».

اخترقتِ العربةُ قريةً صغيرةً، وتابعتْ ماري بناظريها الكثيرَ من



الأكواخِ والأضواء. وشعرت بملل. إن الطريق يطولُ ويطولُ .. وأخيراً قالت السّيدة ميدلوك: «ها قدْ وصلنا». قالت ماري وهي تَتَلفَّتُ حولها، وصوتُ الريحِ الموحشة يُدَوِّي: «أهذا هو البحر؟» فأجابتها المربية: «لا إنّه ليس البحر.. ولا الحقول ولا الجبال. إنها أميال وأميال من أرضٍ قفرٍ لا تنبت فيها إلا الأعشابُ البرّية ولا يعيشُ فيها إلا الخيولُ والماشية».

كانت الرّيح تُصَفِّر وكأنّها هديرُ بحر، والظّلام يَلُفُّ المكان. شعرت ماري بوَحشةٍ شديدة.

وأخيراً انقشع الظلامُ، ولاحَ بَصيصٌ من نورٍ يُبَشِّرُ بنهاية تلك الرّحلة الطويلة. ووقفت العربةُ أمامَ منزلٍ من حجر، بدا غارقًا في الظّلام. وما إنِ اقتربت ماري حتّى لاحَ لها ضوءٌ في زاوية إحدى الغرف. كانَ المدخلُ واسعًا جدًّا تَحُفُّ به الأشجارُ، ويُفضي إلى باحةٍ واسعةٍ. كان كلُّ ما حولَها يُشعِرُها بالضآلةِ والوَحشة.

فتح رجلٌ عجوزٌ البابَ لهما وطلب من السّيدة ميدلوك أنْ تقودَ الفتاةَ إلى غرفتها. وقال إن سيِّدَه لا يريد أن يراهما لأنّه متوجِّهٌ غداً صباحًا إلى لندن. وتولّت المربِّيةُ تلك المُهمَّة ومشتْ بالفتاة عبرَ أدراجٍ ودهاليزَ طويلةٍ إلى أن وصلتا إلى غرفةٍ فيها مدفأةٌ، وعشاءٌ موضوعٌ على الطاولة. قالت المربّيةُ: «ها هي غرفتك وتلك المجاورة لها. هنا ستعيشين. الزمي هاتين الغرفتين فقط وإيَّاك أن تَنْسي ذلك».

وبدأتْ رحلةُ ماري في ميسيل ثويت مانور.

مارتا

استيقظتْ ماري في صباح اليوم التّالي على صوتِ خادمةٍ شابة دخلت الغرفةَ كي تُشْعِلَ المدفأةَ وتنظِّف ما حولها. وراحتْ ماري تُراقِبُها لبضع دقائق. ثم أخذت تُدَقِّقُ في الأشياءِ مِنْ حولها. وبدتْ لها الغرفةُ غريبةً وكئيبةً. فجدرانُها كانتْ مغطاةً بلوحاتٍ قماشيّة تضمُّ صور صيّادين وجيادٍ وكلاب وسيّدات. وشعرتْ ماري كأنّها تعيشُ معهم في غابة. ونظرت ماري من النّافذة فرأتْ امتداداً عظيماً قاحلاً صاعداً من الأرض، بدا لها وكأنّه بحرٌ أرجوانيٌّ لا نهايةَ له. سألتْ ماري الخادمةَ عن ذلك فأجابتها مارتا: «إنّها البرِّية. هل تعجبكِ؟» وراحت مارتا تتحدّث عن تلكَ البرِّية بإعجابٍ، حيثُ تنمو الأعشابُ ذاتُ الروائح العَطِرة، وحيثُ السّماء الصّافية والهواءُ العليل.

ارتسمَ على وجه ماري وهي تستمع إلى مارتا تعبيرُ الدّهشة. فهي تختلفُ عمّن اعتادتْ عليهم من الخادماتِ في الهند. فهنّ لايتكلّمن مع أسيادِهن برفع الكُلْفَة. إنّهن يُطِعْنَ الأوامرَ فحسبْ. وتذكّرت ماري كيف كانتْ تصفعُ آيا على وجهِها عندما تغضبُ منها. وتساءلتْ في نفسها تُرى هل تستطيع أن تفعلَ ذلك مع مارتا الّتي تبدو إنسانةً ذاتَ طبيعةٍ طيِّبة ولكنّها ذات شخصية قوية؟!

أفصحتْ ماري عمّا يجولُ في خاطرها. فضحكتْ مارتا وقالتْ لها إنّها تُعامَلُ معاملةً حسنة هنا. والسّيد كريفن لا يتدخّل في أيٍّ شيء عندما يكونُ في القصر، وهو غالبًا ما يكونُ مسافرًا. سألتها ماري بطريقتها الهنديّة المُتعالية: «هل ستكونين خادمتي؟».

تشاغلت مارتا بما في يدها ثم أجابتها بجرأة: «أنا خادمة السّيدة ميدلوك وهي بدورها خادمة السيد كريفن، أنا مسؤولةٌ عن أشغالِ المنزل في هذا الطابق وعن الاهتمامِ بك قليلاً، ولكنّك قد لا تحتاجين إلى كثيرٍ من العناية». وأفهمتها مارتا بطريقة مهذّبة بأنْ لا تعتمدَ عليها في ارتدائها ملابسها. وسُرعان ما احتدَّ النقاشُ بينهما. وعندما وصفتْ ماري مارتا بالخنزيرة أنّبتها مارتا بطريقة مهذّبة وقالتْ إنّه لا يليقُ بسيّدة شابّةٍ أنْ تتحدّث بهذه الطريقة، وإنّها لم تكن تتوقّع منها ذلك.

استشاطتْ ماري غضَبًا ولم تحاولْ أنْ تُسيطر على أعصابها. وانفجرتْ في وجهِ مارتا كالبُركان. ولم تكدْ تُفْرِغ شُحنةَ غضبِها حتّى شعرتْ بالضعفِ والحزنِ والوَحدة، وراحتْ تنتحبُ في فراشها وقد دفنتْ وجهها في مخدّتها وغرقت في النشيج. فشعرتْ مارتا طيّبةُ القلبِ بالأسف نحوها. واقتربتْ من السّرير وانحنتْ عليها، ورَجتها وهي تعتذر لها، ان تَكُفَّ عن البكاء.

أحسّت ماري بنبرةِ ودٍّ مريحة في كلامِ مارتا، وبدأت تكفُّ عن البكاء بالتّدريجِ. وارتاحتْ مارتا. وقالت لها إنّه حانَ الوقتُ كي

تنهضَ فقدْ أمرتها السّيدة ميدلوك بأنْ تُحْضِرَ لها الإفطار والشّاي وطَعامَ الغداء إلى الغرفةِ المُجاورة. ووعدتها مارتا بأنْ تُساعدَها في ارتداءِ ملابسها.

وعندما همّتْ ماري بارتداءِ ملابسها اكتشفتْ أنّهم قَدْ أحضروا لها ملابسَ جديدةً زاهيةً طلبَ السّيد كريفن شراءَها من لندن. وراقت الملابسُ لماري الّتي كرهتْ ملابسَها المتّشحّة بالسّواد. وعرفتْ ماري أنّه ينبغي عليها أنْ تُغيّر كثيراً من الأشياء الّتي اعتادتْ عليها في الماضي. عليها أن تتخلّصَ من أَسْرِ العادة وأنْ تكْتسبَ أشياءَ جديدةً في المكان الجديد الّذي حلّت به. وكان من بين هذه الأشياء أن تصغي لمارتا وتكتسبَ منها.

وعندما انتقلتْ ماري إلى الغرفة المجاورة لم تجدْها تختلف في شيء عن غرفة نومها. ولم تكنْ راغِبةً في الطّعام الّذي قُدِّم لها. ولكنَّ مارتا استطاعتْ إقناعَها بتناولِ طعامها الّذي يتمنّي كلُّ فتًى أو فتاةٍ أنْ يلتهمَه بِنَهمٍ. وبعدَ تناولِ الإفطارِ أقنعتها مارتا بمغادرةِ الغرفة والخروج إلى الهواءِ الطّلقِ في الحدائق المجاورة. واقتنعتْ ماري بكلام مارتا إذ لم يكن لديها ما تفْعَلُه في تلك الغرفة الكئيبة. وأغراها بالخروج حديثُ مارتا عن المهور والحيوانات وهواءِ البرّية العليل، والطيور، والماشية. ولكن مارتا حذّرتها من الاقتراب من إحدى الحدائق المغلقة. فقد أمرَ السّيد كريفن بإغلاقها لأنّها حديقةَ زوجتِه المُفَضّلة التي تُوفّيت فجأة.

لم تستطعْ ماري ان تمنع نفسَها، وقد أثارها الفضول من الاقتراب

من تلكَ الحديقةِ. وعندما ركضَتْ إليها وجدتْ نفسَها في حديقةٍ غنَّاءَ ساحرةٍ في وسطها برْكَةٌ واسعةٌ ونوافيرُ ماءٍ وكثيرٌ من الأشجار والأزهار. ولكنَّ البركةَ كانت خاليةً والنوافير متوقّفةً عن العمل. قالت ماري في نفسها: لا، ليست هذه الحديقةَ المغلقة.

وتابعت سيْرها إلى ان وصلت إلى حديقةٍ تنمو فيها الثّمارُ والخضرة. ودلفتْ إلها عبر بوّابة من شجر اللّبلاب. كانتْ حديقةً تحيطُ بها الجدران من كلِّ جانب. واكتشفتْ ماري أنّها ليست إلا حديقةً واحدةً من بينِ عدّة حدائق مُسَوَّرة تتصل إحداها بالأخري. وفيما هي تُحَدِّقُ فيما حولها رأتْ رجلاً عجوزاً يحملُ رفشًا على كتفه. لم يُسَرَّ الرجل لرؤيتها. ولم تُسَرَّ ماري بدورها لرؤيته، ولكنّها سألته عن المكان الّذي تقفُ فيه، فأجابها بأنّه أحد البساتين البيتية. تابعتْ ماري سيرَها ودلفتْ عبرَ بوّابة خضراء. كانَ بستانًا آخر من بساتينِ الخضر الشّتويَة. وعندَ الجدارِ وجدت بوّابة خضراء أخرى ولكنّها مغلقة. وظنّت ماري أنّها بوابةُ الحديقةِ المغلقة فحاولت فَتْحها فانفتحَ البابُ بسهولةٍ ووجدتْ نَفْسها في بستانٍ آخر. وشاهدتْ ماري عندَ السّور طائرًا جميلاً يشدو بصوت شجيٍّ أدخل السّرور على قلبها. وراحت تُصغي لشدوِه حتّى طارَ بعيداً. وقالتْ في نفسها: «لعلَّ عُشَّه في تلك الحديقةِ الغامضةِ ويَعْرِفُ عنها كلَّ شيء». وراحت ماري تتساءل: «لماذا أخفى السّيد كريفن مفتاحَ تلك الحديقة؟ وإذا كان يُحِبُّ زوجتَه كثيراً فلماذا يكرَهُ تلك الحديقة؟!» وخطر لها فجأة أنَّ الشّجرةَ الّتي كانَ يقفُ عليها ذلكَ الطّائر الغرِّيد



إنما هي إحدى شجرات تلك الحديقة. أجل، قالت في نفسها، فهي مُسَوَّرة وليس لها باب. وعادتْ فجأةً إلى البستانِ الأوّل. وأخبرتِ الرّجل العجوز بما اكتشفتْ. ابتسمَ البُستاني وراح يصفِّر. وسرعانَ ما عاد الطّائر الغرّيد. فراحَ البستاني يتحدّث إليه وكأنّه صديقُه.. وقال لماري: «إنه طائر الحِنّاء، وهو من أكثرِ الطّيور ودًّا وندرةً. إنّه طائرٌ وفيٌّ كالكلبِ إذا عرفتِ كيفَ تعاملينه. إنّه يعرفُ أنّنا نتحدَّث عنه الآن. إنّه طائرٌ مغرور يُحب أن يتحدّثَ عنه الآخرون». اقتربت ماري من الطائر وراحت تتفَرَّس فيه قائلةً: «إنّني وحيدةٌ».

أخذت ماري تتجاذبُ أطرافَ الحديثِ مع البستاني العجوز. وشعرت أنَّ الحديث معه يخفِّف من شعورها بالوحدة. فقد كان البستاني وحيداً مثلها لا صديقَ له إلا ذلكَ الطائر الغرّيد الّذي كانَ يرفرف حولهما. وندَّتْ عن الطائر حركةٌ أثارتِ اهتمامَ ماري واستغرابها فقال لها العجوز: «لا تندهشي إنَّ طائر الحنّاء يريدُ مصادَقَتكِ». فرحتْ ماري وراحت تُكلِّمُ الطّائرَ كأنما تتحدّث إلى إنسانٍ عاقل: «أحقًّا تُريدُ مصادقتي؟» قالت ذلك بصوت عذب رقيق لم تعتدْ عليه. وسرعان ما راح الطّائرُ يرفرف بجناحيه وكأنّه يودّعهما ويطيرُ من مكان إلى آخر حتى عادَ من حيث أتى.. عادَ إلى تلك الحديقةِ المغلقة الّتي أثارت فضول ماري. وحاولت ماري أنْ تستفسرَ من البستاني العجوز ثانية، ولكنه نصحَها بألا تَدُسَّ أنفها فيما لا يعنيها. وطلبَ منها أن تلعبَ بعيداً، وحمل رفْشَه، ومشى دونَ أنْ يَنْظُرَ إليها أو يودِّعَها.

صرخةٌ في الممشى

كانتِ الأيامُ رتيبةً متكرّرةً في حياةِ ماري لينوكس في القصر. فهي تستيقظُ كلَّ صباحٍ في غرفتها لتجدَ مارتا تُشْعِلُ المدفأةَ لها، وفي كلِّ صباحٍ تتناولُ طعامَ الإفطارِ في غرفةِ الأولاد، ثم تُحدِّق طويلاً من النافذة في البرِّية الواسعة فسيحة الأرجاء والّتي كانتْ تبدو لها وكأنها تَتَصاعدُ إلى السّماءِ. ثم لا تَلْبَثُ أَنْ تَخْرُجَ. وكان الخروجُ إلى الهواء الطلق أفضلَ ما تفعله لِما يُكْسِبُها من هِمَّةٍ ونشاط، ومن صحةٍ ورونق.

نهضتْ ذاتَ صباح وهي تَشْعر أنّها جائعةٌ. والتهمَتْ طعامَ إفطارها على غير عادتها بكثير من الشهيّة. ولاحظت مارتا ذلك وقالت لها: «إنَّ هواء البرِّية العليل هو الذي يُكسبك الشّهيةَ والنّشاط». ونصَحَتْها بالخروج يوميًّا إلى البرّية حتّى تكتسبَ صِحّةً ورونقًا.

ولكنَّ ماري لم تكنْ تجد ما يُسَلّيها كثيرًا في البرّية. كانتْ تدور وتدور حول الحدائق وتَخْطُر في الممرّات. وكانت تَتَقَصَّدُ رؤيةَ البستاني العجوز، ولكنها تجدُه في كلِّ مرّة منهمكًا في عمله. وكانت أكثرَ ما ترتادُ ذلك الطريق الطويل الّذي يلْتَفُّ حول أسوار

الحدائق، حيث تُصادِف أحواضَ الأزهار على الجانبين وحيث يَتسلَّقُ اللبلابُ بكثافةٍ على الجدران.

وذاتَ مرّة سمعت وهي تجولُ في البرّية زَقْزَقة طائرِها الحبيب، وفرحتْ برؤيته كثيراً. لقد كان بدوره يرنو إليها وكأنه يريد أنْ يلقاها. وراحت تُكَلِّمه كما لو أنه يفهمُها، وفي حين أخذَ الطائر يرفرفُ ويزقزقُ وكأنّه يريدُ أنْ يقول لها أشياءَ كثيرة. غمرتِ السّعادةُ ماري وهي تلاحقُه من مكانٍ إلى آخر. وصاحت بأعلى صوتها: أُحِبُّكَ! أُحبُّك. وراحت تحاول أن تزقزقَ مثلَه، وهو يبادلها الزقزقة ثم ارتفع إلى أعلى شجرة وراح يشدو لها تغريدة العذب.

قالت ماري في نفسها: «إنّه في الحديقة الّتي لا يستطيع أحد أن يَدخُلَها.. الحديقة التي لا باب لها. لكمْ بودّي أن أعرفَ كيف تبدو!».

سارعت ماري إلى ولوجِ البوّابة الخضراء الّتي دخلتْ منها أوَّل مرّة، وعبَرتِ الممرّ إلى بوابةِ أخرى ثم إلى البُستانِ وهناك شاهدتْ طائرَها على قمةِ شجرةٍ عند الطّرف الآخر وراء الجدار، يُنظِّفُ ريشَه بمنقاره. قالت ماري في نفسها: «إنّها الحديقةُ إيّاها. أنا متأكدة!» وأخذتُ تلفُّ حولها من كل جانب دون أن تجدَ أيَّ بابٍ أو مَنْفَذ. وراحت تُحدِّثُ نفسَها: «يا له من أمرٍ شديدِ الغرابة! لا بدَّ أنّه كان هناك أحدٌ ما قبل عَشْرِ سنواتٍ لأنَّ السّيد كريفن أخْفَى المفتاحَ في مكان ما».

أثار هذا الموضوع اهتمامَها من جديدٍ، وشعرتْ ماري أنّها غيرُ آسفةٍ على مجيئها إلى « ميسيل ثويت مانور ». إنَّ رياحَ البرِّيةِ المُنعشةِ تُنَشِّطُها وتوقِدُ ذِهنَها.

بقيتْ ماري خارجَ البيتِ قُرابة النّهار بطولِه. وعندما جلستْ لتناولِ طعام العَشاء مساءً، شعرت بالجوعِ والنُّعاسِ والرّاحة. وشعرتْ برغبةٍ في الحديث إلى مارتا. وسألتها بعد أنْ أنْهت عشاءَها فيما كانت مارتا تجلس عند المدفأة :

« لماذا يكره السّيد كريفن الحديقةَ؟ ».

كان لدى مارتا رغبةٌ في الكلامِ. قالت لماري: « هل ما زلتِ تفكّرين في تلك الحديقة؟ » ولمّا وجدتْ ماري مُصِرّةً على معرفةِ سرِّ تلك الحديقة قالت لها :

« أصغي إلى الرّياح العاصفةِ الّتي تلفُّ المنزلَ. إنها ستذروك بعيداً لو كنتِ واقفةً في البرّية هذه الليلة ».

لم تدركْ ماري معنى الرّيح العاصفةِ الهائجةِ إلاّ بعد أن أصاخت السمع لعويلها المُرعب. وشعرت بالاطمئنانِ لجلوسها في غرفةٍ مغلقةٍ قُرْبَ نارِ المدفأة. ولكنها عادت إلى السؤال: « ولكن لماذا كانَ يكرَهُها إلى هذا الحدّ؟ » وهنا أفرغت مارتا ما في جعبتها :

« السّيدة ميدلوك حذَّرَتْنا منَ الكلام حول هذا الموضوع. إنَّها أوامرُ السّيد كريفن. فَمَتاعِبُهُ ليست من شئون الخدم. لقد كانت

الحديقةُ حديقةَ السّيدة كريفن. فهي الّتي أوجدتها عند زواجها من السّيد كريفن. كانا يحبّانها كثيراً. كانا يعتنيان بالأزهار بنفْسَيْهما، ولا يَسْمحان لأيٍّ بستانيّ بدخولها. كان من عادتهما أن يُغلقا البابَ خلفهما ويبْقَيا داخلها ساعاتٍ طويلةً يقرآن أو يتسامران. وكان في الحديقة شجرةٌ قديمةٌ ذات غصن مُنْحَنٍ أشبهُ بالمقعد، اعتادت السّيدة كريفن ان تجلسَ عليه. وفيما هي جالسةٌ ذاتَ يوم انكسر الغصن وسقطت السّيدة على الأرض وأُصيبتْ إصابةً بالغةً، وأسلَمت الرّوح في اليوم التالي. وظنَّ الأطباءُ أن السّيد كريفن سيُصاب بالجنونِ ويموتُ هو الآخر. هذا هو السَّبَبُ وراءَ كُرْهِهِ لتلك الحديقة، الّتي لم يدخلْها منذ تلك الواقعة».

لم تسألْ ماري أيَّ أسئلةٍ أُخرى، بل راحتْ تحدّق في نارِ المدفأة وهي تُصغي إلى الرّيحِ «الهوجاء». وبدا لها أنها تزدادُ عَصْفًا وعَويلاً.

في تلك اللحظة شعرتْ ماري أنَّ ثمّة تغييراتٍ قد طرأتْ على حياتها منذ وصولها إلى القصرِ. فهي الآن تفهمُ طائر الحنّاء ويفهمُها، وهي تَجري في مواجهةِ الرّيح حتّى تَحْمَرَّ وجنتاها، وهي قد اكْتَسَبَتْ شهية طيّبة للطعام لأول مرة في حياتها، وصار لديها ما تأسف عليه إزاء شخص ما.

وفيما هي تُصيخُ السّمعَ إلى عويل الرّيح اختلَطَ عليها صوتٌ آخرُ يُشْبه بكاءَ الأطفالِ. وخُيِّل إليها أنَّ طفلاً يبكي في مكان ما داخلَ

البيت، وليسَ خارجَه. التفتتْ إلى مارتا وسألتها: «هل تسمعين أحداً يبكي؟»

اضطَربتْ مارتا وقد بُوغتتْ بالسّؤال وقالت: «لا .. إنّها الرّيح، إن صوتَها يُشْبه عويلَ إنسانٍ تاهَ في البرّية».

«ولكن أصغي، إنّه صوتٌ داخلَ المنزلِ، صوتٌ ينبعِثُ أسفلَ أحدِ تلك الدهاليز الطويلة».

في تلك اللحظة انفتح أحدُ الأبوابِ في الأسفل، وسُمِعَ صوتُ ارتطامٍ عالٍ. وبات صوتُ البكاءِ عاليًا واضحًا. قالت ماري: «ها هو الصوت! ألم أقلْ لكِ! إنّه صوت بكاءِ صغير». هُرِعَت مارتا لإغلاق الباب وقفلِه بالمفتاح. وقبل أن تفعلَ ذلك سمعت كلتاهما صوت بابٍ في أحد الممرات البعيدة يُغلق بخبطةٍ عنيفةٍ، ثم هدأ كلُّ شيء.. حتى الرّيحُ كفّت عن العويل.

قالت مارتا بمكابرة: «إنّها الريح.. وإذا لم يكنْ صوتُ الرّيح، فهو صوتُ بيتي بيترورث خادمةِ المطبخ الّتي تشكو من آلام الأسنان طوالَ النّهار».

بيدَ أنَّ سلوكَها المضطربَ والمرتَبِكَ جعل ماري تُحدِّق فيها بقسوةٍ لأنها عرفَتْ أنها لم تكنْ تقولُ الحقيقة.

إنه صوت بكاءٍ بالتّأكيد

هطلَ المطرُ مِدْراراً في اليوم التّالي. وعندما نظرتْ ماري من النافذة كانَ الضبابُ يكادُ يُغَطّي البرّية كلَّها. ولم يكنْ من الممكنِ الخروجُ من المنزل في ذلك اليوم. سألت ماري خادمتَها مارتا عمّا تستطيعُ فعلَهُ في يومٍ كهذا. فأجابتها مارتا بأنَّ إخوتَها الكبار الّذين يعيشون في كوخٍ يفضّلون عادةً الذّهاب إلى إسطبلِ البقر حيث يلعبون ثَمّة. أما الصغير ديكون فهو لا يبالي بالمطرِ ويقول إنّه يكتشفُ أشياءَ غريبةً في الأيام الماطرة.

كانت ماري قد بدأتْ تتأقلمُ مع أحاديثِ مارتا وتستمتعُ بها، وتشعر بفراغٍ حين تنصرف مارتا عنها. ولاحظتْ ماري الفرقَ الكبير بين أحاديثِ مارتا وأحاديثِ مربّيتها القديمة آيا. وكان أكثرُ ما يثيرُ اهتمامَ ماري حديث مارتا عن أسرتها الكبيرة العدد، ولا سيما عن والدتها وعن الصغير ديكون. وعندما سألتها ماري عن شيءٍ تملأُ به وقتَ فراغِها نصَحَتها مارتا بالقراءةِ، ونَوَّهَت بوجود مكتبةٍ كبيرةٍ في المنزل. وعزمت ماري على أن تستكشفَ هذه المكتبةَ بنفسها.

لم يكنْ أحدٌ من خدم المنزل يتَفَقَّدُ، عدا مارتا بالطبع، شئونَ

ماري، أو يسألها عن شيءٍ. واعتقدتْ ماري أنَّ هذا السلوك ربما يكون من ضمنِ الطريقة الإنجليزية في التّربية. وشعرت أنَّ ذلك أفضل، فمُرَبِّيتها القديمة آيا كانتْ تُلازِمُها كظلّها. أما الآن فهي أكثرُ حريّةً وأكثر اعتماداً على نفسها.

عادت فكرة استكشاف المكتبة إلى بالها، وأثارت فكرةُ وجودِ عشراتِ الغرف المغلقة في هذا المنزل فضولَها. وعزمت على أن تستطلعَ الأمر لا سيّما وأنَّها لن تخرجَ إلى خارجِ المنزل في هذا اليوم. وصمَّمت في الوقت نفسه على ألا تطلب إذْناً من أحد.

فتحت بابَ غُرفتها وخرجتْ إلى الممشى وبدأت تتجوّل. كان الممشى طويلاً تتفرّع منه دهاليزُ كثيرة. وكان ثمة عشراتُ الأبوابِ، ولوحات وصور على الجدران. ووجدتْ نفسَها فجأة في شُرْفَةٍ داخليّةٍ قد امتلأتْ جدرانُها بصورِ الوجوه. وراحت تتجوّل ببطءٍ وهي تَتَفَرَّسُ في تلك الوجوهِ الّتي بدتْ لها أنّها تُحَمْلِق فيها أيضًا، وتتساءل عمّا تفعله فتاةٌ هنديّة صغيرةٌ في هذا المكان.

تابعتُ ماري جولتها مذهولةً في ذلك البيت الكبير وهي تَنْتَقل من ممرٍّ إلى ممر، وتصعدُ وتهبط. وبدا لها القصر خاليًا، وخَطَرَ لها أنها ربّما تكون أولَ من يَسْلُك تلك الدهاليز والممرات. وما إن وصلت إلى الطابق الثّاني حتي خطرَ لها أَنْ تفتحَ أحدَ أبوابِ تلكَ الغرف المغلقة. وشَعرتْ برهبةٍ عندما أدارتْ قبضةَ أحد الأبواب فإذا

به ينفتحُ أمامها بسهولة. كان بابًا ضخمًا. ينفتح على غرفةِ نومٍ، ازدانت جدرانُها بستائرَ مُطَرَّزة وتَوزَّعَ فيها الأثاثُ المحفور. وكان في الغرفة نافذةٌ واسعةٌ تُطِلُّ على البرّية. وشاهدت فوقَ رف الموقدِ صورةَ الفتاةِ الصغيرة الّتي رأتها بين اللوحات قبلَ قليل. وقالت ماري في نفسها: «لعلَّها تنامُ هنا ذات مرة. ولكن ما بالُها تُحَدِّق بي وكأنها تُشْعِرُني بأنّني غريبة!»

وفتحت بعد ذلك أبوابًا وأبوابًا وأطلَّت على غرف كثيرة ذاتِ طراز متكرّر من حيث اللوحات والأثاث الفاخر والستائر المُسْدَلَة المُطَرَّزة، والتماثيلِ العاجيةِ. وشعرت ماري أخيراً بالتّعب الشديدِ من كثرة ما فتحت من أبوابٍ وما وَلجَت من غرف. وتاهت أكثرَ من مرّةٍ ما بين الممرّات والدّهاليز وهي تعودُ أدراجَها. وفيما هي تُحاولُ أن تتعرف طريق العودة إلى غرفتها إذا بها تسمع صرخةً أخرى. ولكنها لم تكنْ كصرخةِ الأمس، بل كانت نُواحًا طُفوليًّا قصيراً مُفْعمًا بالحزن. وخفق قلبُ ماري.. إنّ الصوتَ يقتربُ.. إنّه صوتُ بكاءٍ. ووضعتْ يدها بالصدفةِ على لوحةٍ قماشيّةٍ قربها، وسرعان ما تراجَعَتْ مذعورةً. فقد كانت اللوحةُ غطاءً لبابٍ انفتح وكشف لها عن وجود جانبٍ من الممشى خَلْفَه. ورأت السّيدة ميدلوك تصعد وفي يدها حُزْمَةٌ من المفاتيحِ وقد ارتسمتْ على وجهها نظرةٌ صارمة.

سألت السّيدة ميدلوك بغضب: «ماذا تفعلين هنا؟» وتابعت وهي تَجُرُّها من يدها بعيداً: «ماذا قلتُ لكِ؟»

قالت ماري وهي تحاول أن تُبرِّر موقفَها: «لقد اتخذتُ الممشى الخاطئ. لم أعرفْ في أيِّ اتجاه أسير، وسمعتُ صوت بكاء».

اغتاظتْ ماري من موقف السّيدة ميدلوك، وازدادت غيظًا عندما قالت لها: «أنتِ لم تسمعي شيئًا. عُودي إلى غرفتكِ وإلا شدَدْتُ أذُنَيك».

وأمسكتْ بيدها وأخذت تُجَرْجِرها وتدفعها إلى أنْ وصَلَت بها إلى غرفتها. وقالتْ لها بلهجةٍ صارمة: «ابْقَي الآن حيث أمرْتُك أنْ تبقَي وإلا أغلقتُ بابَ غرفتك عليك، من الأفضلِ أن يُحْضِرَ لك ربُّ البيت مربيّة خاصّة كما قال، إنّك من النّوع الّذي يحتاجُ إلى مراقبةٍ صارمة، وأنا عندي ما يكفي من أعمال».

خرجتْ مُدبِّرةُ المنزل من الغرفة وصفقتِ البابَ خلفها، تاركةً ماري وراءَها شاحبةً ترْتجفُ غضبًا، وتَصرُّ على أسنانها.

لقد سمعتْ صوتَ الصُّراخِ مرّتين حتّى الآن، ولا بدَّ أنْ تكتشفَ حقيقةَ أمرِه يومًا ما. لقد اكتشفتِ الكثيرَ هذا الصّباحَ. وشعرتْ ماري وكأنّها عادتْ من رحلةٍ طويلة.

مفتاحُ الحديقة

بعد يومين على تلكَ الواقعةِ فتحتْ ماري عينيها وجلستْ في فراشها وصاحتْ بمارتا: «انظري إلى البرّية! انظري إلى البرّية!»

انتهتِ العاصفةُ الماطرةُ وانقشعَ الضبابُ والغيومُ في الليل بعد أن ذَرَتْها الرياحُ. وها هي السّماء الزرقاء الصّافية تُحيط بأرضِ البرّية. لم تحلمْ ماري أبداً بسماءٍ صافية كهذه، تَشيعُ فيها البرودة خِلافًا لسماءِ الهند القائظة الملتهبة.

قالت مارتا: «هيه.. لقد أدبرتِ العاصفة. إنها تفعلُ ذلك في مثل هذا الوقتِ من كل عام. إنّها تباشيرُ الربيع».

أعربتْ ماري عن رغبتها بالتّجولِ في البرّية وزيارة الكوخ الّذي تُقيم فيه أسرةُ مارتا. فقالت مارتا إنّها ستُخْبرُ والدتَها بذلك. وستُعَرِّفُها على والدتِها وشقيقِها الصغير ديكون. وودَّعَت ماري بعد أن حضَّرتْ لها طعامَ الإفطارِ واتّجهتْ إلى كوخِ أسرتها في البرّية، فقد كان ذلك اليومُ يومَ عطلتها.

شعرتْ ماري بالوحدة بعد ذهاب مارتا، فسارعت بالخروج إلى الحديقة. وكان أوّلُ شيءٍ فعلَته أنّها راحتْ تَلُفُّ مرّاتٍ عدّة حولَ

حديقةِ الأزهارِ ذات النافورة. كانت الشّمسُ مشرقةً والسّماءُ زرقاءَ صافية. شعرتْ بالبهجةِ والانتعاشِ وهي تنظرُ إلى السّماء. ثم لم تلبثْ أنْ دخلت البستانَ المنزلي فوجدت البستانيَّ العجوزَ بن مُستبشرًا فراحت تُجاذبُه أطرافَ الحديث. وسرعان ما لاح لها طائرُها المفضل (أبو الحن) وهو يرفرفُ بجناحيه، مقتربًا منها. تساءلت ماري: «أتُراه لا يزال يتذكرني؟» فأجابها بن: «إنّه يعرف كلَّ شيء في هذه الحديقة فكيف لا يتذكّرُك؟!».

عادت ماري تفكّر في تلك الحديقة المهجورة المغلقة. وراحت تمشي الهوينا وطائر الحنّاء يُتابعُها. وقد أسعدَها أن يرافقَها الطّائر وهو يثِبُ من غصنٍ إلى آخر. وراحت تخاطبه بودٍّ وكأنّها تتحدّث إلى كائنٍ عاقل. كانت تقترب منه وتقترب وتحاول أن تقلّد صوتَ زقزقته. لقد شُغِفَت به واعتبرَته أعزَّ مخلوقٍ لديها.

لاحظتْ ماري أنَّ الطائرَ قد وثبَ إلى كومةٍ صغيرةٍ من التّراب في حوض الأزهار، ووقف عندها وكأنّه يبحثُ عن دودة. وإلى جانب تلك الكومة كان ثمةَ حُفْرةٌ صغيرةٌ في التّراب. اقتربت ماري فرأتْ داخلها شيئًا يُشبه الخاتم من حديدٍ صدىءٍ، أو من نُحاس. مدَّت يدها والتقطتْ ذلكَ الشيء. لم يكنْ خاتمًا بل كانَ مفتاحًا قد دُفِنَ في التراب منذ وقتٍ طويل. تفحّصتْه ماري بوَجَل. قالت هامسة: «لعله دُفن منذ عشر سنوات! لعله مفتاح الحديقة!».



طائر الحنّاء يكشفُ الطّريق

تفحَّصتْ ماري المفتاحَ طويلاً وراحت تُقلِّبُه بين يديها مرّاتٍ عدّة. كان كل ما يَشغَلُ بالها هو ما إذا كان هذا المفتاح هو مفتاحُ الحديقة. وإذا كان كذلك فأينَ بابُها! لا بدَّ أنَّ تلك الحديقة تختلفُ عن أيِّ مكانٍ آخر، وربما حدثتْ أشياءُ غريبةٌ داخلها خلال السنوات العشرِ الماضية! وقالت تُحَدِّث نفسَها: «إذا أعجبتْني فسوف أرتادُها كلَّ يومٍ وأُغلقُ بابها عليَّ». وراقتْ لها فكرةُ أنْ تلهوَ وتلعبَ في الحديقة بمفردها دون أن يعْرفَ أحدٌ أين هي.

لقد كانَ لهواءِ البرِّية المنعشِ فعلُ السِّحرِ في ماري. فهو لم يُعدْ لها شهيَّتَها إلى الطّعام ورونقَها فحسب، بل حفَّزَ كذلك ذهنَها الّذي كان خاملاً وأيقظَ خيالها في ذلك القصر الّذي يكتنفُه الغموض.

وضعتِ المفتاحَ في جيبها وأخذت تمشي في ذلك المكان جيئةً وذهابًا. وراحتْ تنظرُ إلى الجدار المحيط بالحديقة وإلى شجرِ اللبلاب الكثيفِ المُتَسلِّق عليه. وغاظها أنَّها ما وَجَدَت مَنْفَذاً ما إلى داخل تلك الحديقة. وقالت في نفسها: «أليس سخيفًا أن أكون قريبةً منها ولا أستطيعُ أنْ أنفُذَ إليها!» وعادت أدراجَها إلى البيتِ وقد صمّمت

على أن تُبقي المفتاح دومًا في جيبها في غُدُوِّها ورَواحِها بحيثُ تستخدِمُه إذا ما اكتشفتْ يومًا البابَ الخفيَّ.

عادت مارتا مبتهجةً سعيدةً في صباح اليوم التالي من كوخٍ أسرتها في البرّية. وراحتْ تقُصُّ على ماري ما فعلته مع والديها وإخوتها. وقالت لها إنّها حدَّثتهم عنها وهم يرغبون في معرفة المزيد عنها، وعن الهنود السُّودِ، وعن السفينةِ الّتي حملتها إلى إنجلترا. لمْ تهتمّ ماري كثيرًا بما قالته مارتا، ولكنّها وعدَتها بأنْ تُحَدِّثها بالمزيد مِنْ أخبارِ الهند وعاداتِ النّاس هناك قبل زيارتِها القادمة لأهلها. وسألتها ما إذا كان حديثُها عنها قد راقَ لأمها وديكون. وأخبرتها مارتا عمّا دار من حديثٍ مطوَّلٍ بينها وبين أمِّها عنها، وعن ضرورة وجود مربّية خاصّة لها كي تُعَلِّمَها القراءة والكتابة وتعتني بها. وروَت لها كيف أوصتها أمُّها أن تُسلّيها وتُسعدَها.

كانت مارتا سعيدةً كلَّ السعادةِ لأنّها أحضرتْ معها هديّةً لماري هي حبل القفز، وراحتْ تُريها كيف تلعبُ بها لعبةَ النَّطّة. ودَعَتْهَا إلى أنْ تُجرِّبَ بنفسها تلك اللعبة الّتي تُكْسِبُها الحيوية والنّشاط كما قالتْ أمُّها. راقت اللعبةُ لماري وإنْ كانتْ محاولاتُها الأولى في القفز بطيئةً ومُتعَثِّرة.

لم تعرف ماري كيفَ تَشْكُرُ مارتا. شعرتْ أنَّها تحبّها كما أحبّتْ تلك اللعبة. وراحَتْ تَقْفِز وتَعُدُّ حتى احمرّت وجنتاها وشعرتْ بسعادةٍ غامرة. ما أجمل أن تمارسَ تلكَ اللعبةَ في الهواء الطَّلْق في نهارٍ صحو

مُشرق، أو في الحدائق والبساتين المنزليّة الّتي اعتادت التجوال فيها. وفيما هي تقفزُ وتلعب، توقّفتْ لترتاحَ قليلاً من عناءِ الوثبِ، وتلفّتتْ لتجدَ طائرَ الحنّاء يرفرفُ بالقربِ منها عندَ غصن طويلٍ من أغصانِ اللبلاب، ويُحيّيها بزقزقة. نظرت ماري إليه ضاحكةً وقالتْ له: «لقد أريتني المفتاح البارحة، وعليك أن تُريني البابَ اليوم، ولكنّني لا أعتقدُ أنّك تَعْرِفُ مكانَه».

فَتَحَ الطّائرُ منقارَه وراح يشدو مُتباهيًا. وفيما راحتْ ماري تَنْظُرُ إليه مشدوهةً مبْتهجةً جاءتْ هبَةُ ريحٍ قويّةٍ هزّت أغصانَ الأشجارِ، وكانتْ قويّةً بما يكفي لزحزحةِ أغصانِ شجرِ اللبّلاب المُدلاةِ على الجدران مما كشفَ عن دائرةٍ معدنيّةٍ صغيرةٍ كانت مختفيةً خلفَ الأوراقِ الخضراءِ الكثيفةِ. وأدركتْ ماري أنّها فتحةُ قُفْلِ الباب. وراح قلب ماري يَخْفُقُ ويداها ترتعشان وهي تُحاولُ إزاحةَ الأوراقِ. كانت سعيدةً مُستثارةً لهذا الاكتشاف. فها هي تَضَع يدَها على قفلِ البابِ الّذي ظل مغلقًا عَشْرَ سَنَواتٍ. أَدْخَلَتْ ماري المفتاحَ في فتحةِ القفلِ وأدارته بقوّةٍ بكلتا يديها، فإذا به يدور. التقطتْ أنفاسَها من المفاجأة واستدارتْ إلى الخلفِ لترى ما إذا كان هناك أحدٌ ما يراقِبُها. لم يكنْ ثَمَّةَ أحد. أزاحت مرّةً أُخرى أغصانَ اللّبلاب المدلاةِ ودفعتِ البابَ الّذي راحَ ينفتحُ ببطء.

وَلَجَت ماري من البابِ وأغلقتْه خلفَها، وراحت تتأمّل ما حولَها وقد انبهرتْ أنفاسُها. إنها الآن داخلَ الحديقة السريّة!

كان المكانُ جميلاً ساحرًا مُفعمًا بالغموضِ، والجدرانُ العالية الّتي تُحيطُ به مغطّاةً بجذوعِ أشجار الورد الكثيفة المتشابكة. وكانت الأرضُ حولها مغطاةً بجذوعِ أشجار الورد الكثيفة المتشابكة. وكانت الأرضُ حولها مغطاةً بعشبٍ ذي لونٍ بُنّيٍّ نَبَتَتْ من خلاله شتلاتُ الورد وشجيراتُه غيرُ المورِقة. كان المكانُ أشبهَ بفردوسٍ سحريٍّ مهجورٍ، كانَ مكانًا لم تشهدْ ماري له مثيلاً من قبل.

أصاخت ماري السّمعَ.. كان السكونُ يَلُفُّ المكان. حتّى طائرُ الحنّاء الّذي لحق بها إلى داخل الحديقة كان صامتًا، ينظرُ إليها من قمةِ الشّجرةِ الّتي اعتادَ أن يقِفَ عليها.

ابتعدتْ ماري عن البابِ وراحتْ تخطو بتؤدةٍ وكأنّها تخشى أن توقظَ أحدًا. وكانت سعيدةً أنْ تمشي فوق العشب حتى لا يُسمَعَ صوتُ خطواتِها. ثم خَطَتْ تحت أحد الأقواس السحريّة بين الأشجار وراحتْ تتأمّل الأغصانَ اليابسةَ والنباتاتِ المُتَسلّقةَ من حولها. وتساءلتْ في نفسها: «ترى أحديقةٌ ميْتة هي؟» إنّ كلَّ ما تقعُ عيناها عليه من أغصانٍ تجدُه بُنّيَّ اللون لا ورق فيه. ولكنّها كانتْ سعيدةً لأنّها دخلتْ هذه الحديقةَ أخيرًا ولأنّها تستطيع أنْ تأتي إليها في أيِّ وقت. لقد اكتشفتْ عالمًا خاصًّا بها.

كانت ماري تتمنّى وهي تطوفُ في أرجاء تلك الحديقة لو أنها كانتْ حديقةً غنّاء تزدانُ بالأزهار والأوراق. ومع هذا فقد كان هناك بعض الزوايا المُظَلَّلَة الخضراء ذات مقاعدَ حجريّة. شاهدتْ في إحدى هذه الزوايا حوضَ أزهارٍ نَمَتْ فيه بعضُ النّباتات الخضراء. وظنَّت ماري أنّها يمكن أن تكون الزعفران أو النرجس البرّي. انحنت عليها وراحت تَشُمُّ رائحتَها الزكيّة مجبولةً برائحةِ التُّربة الرَّطبة.

تابعتْ ماري سيرَها ببطء وهي تَتَلَفَّتُ حولها، وشاهدتْ بقعًا عدّةً خضراءَ متناثرةً هنا وهناك. سرَّها وجود نباتاتٍ حيّةٍ في تلك الحديقة. وعَزَمتْ ماري على أن تكتشفَ المزيدَ من هذه البقع الخضراء وعلى أنْ تعتني بها في الأيّام القادمة. وكانَ طائرُ الحنّاء سعيداً بدَوره وهو يتابع ماري ويراها تُضفي لمساتٍ من الحنان على بعض الشُّجيرات أو النباتات في مملكتِه.

كانت ماري في شُغلٍ بما حولها حتى إنَّها لم تشعرْ أنَّها أمضتْ قُرابةَ ثلاث ساعات في تلكَ الحديقة، وأنَّ وقتَ الغداءِ قد حان، وهي سعيدةٌ تستمتعُ بكلِّ ما تكتشفُه وتراه. وعزمتْ ماري على العودةِ بعد الظّهر. وعندما عادتْ أدراجَها إلى البيتِ كانت مُحْمَرَّةَ الوجنتين مشرقةَ العينين وأكلتْ بشهيّةٍ طيّبةٍ لفتتْ نظرَ مارتا. وكان حديثُ ماري مع مارتا ظُهرَ ذلك اليوم عن النباتات والأبصال الّتي اكتشفتها في الحديقة دون أنْ تخبرَها بسرِّها.

كانت تعرفُ أنَّ عليها أن تكون حذرةً إذا كانت تريد أن تحتفظَ

بحديقتها السرِّية. ومع هذا فإن رغبتَها في أنْ تَحْفِرَ في تلك الحديقة أو تعيدَ ترتيبَ التّرابِ قد جعلتها تسألُ مارتا بلهفةٍ ما إذا كانتْ تستطيعُ أنْ تشتري لها رفشًا لتحفرَ به. وعندما أبدتْ مارتا دهشتَها لمثلِ هذا الطّلبِ تذرّعتْ ماري بالملل وبرغبتها في أن تملأَ أوقاتَ فراغِها بِشَيءٍ يُسلِّيها. وقالتْ إنّها تستطيعُ أَنْ تعطيها ثمنَ الرَّفْش من مصروفها. ولّما رأت مارتا أن ماري مهتمّةٌ بشراءِ الرفش وعدَتْها بتحقيق رغبتها، كما وعَدتها بأن تشترى لها بعضَ البذور بقروشٍ زهيدة. وقالت إنَّ أخاها ديكون كثيرًا ما يذهب إلى « ثويت » لشراء بعض الأشياء، وأنّها تستطيع أن تُكلِّفَه بشراءِ ما تحتاجُ إليه من أغراضٍ للحديقة. وطلبت مارتا من ماري أن تكتبَ رسالةً لأخيها ديكون تُخْبِرُه فيها باسمها. فرحتْ ماري لاقتراحِ مارتا كثيرًا وأثنتْ عليها بودٍّ.

لم تخرجْ ماري بعد ظهر ذلك اليوم إلى الحديقة كما كانتْ تخطِّط. فقد كانَ عليها أن تكتبَ الرّسالة إلى شقيقِ مارتا.

جاء في الرسالة التي كتبَتها ماري على لسانِ مارتا أنّها تريدُ من ديكون أنْ يذهب إلى « ثويت » لشـراءِ بعض بذور الأزهارِ وبعضِ أدواتِ البَسْتَنَة من أجل ترتيب أحواض الأزهارِ. وطلبتْ منه أن يشتريَ أفضلَ البذور وأسرَعها نموًّا. وطلبتْ مارتا أن ينقل أطيبَ مشاعرِها إلى والدتها وإخوتها. ولم تنسَ بالطبع أن تنقلَ مشاعر ماري الطيّبة لجميع أفراد العائلة.

وضعت مارتا النقود مع الرّسالةِ وبعثتْ بها إلى ديكون مع صديقٍ

له. وقالتْ مارتا إن ديكون سيحضُر بنَفْسِه إليها جالبًا معه الأشياءَ المطلوبة. فَرِحَتْ ماري لفكرةِ لقاءِ ديكون الّذي طالما حدّثتها مارتا عنه.. وكانت سعادتُها أكبر عندما قالتْ لها مارتا إنّ أمّها ستطلب من السّيدة ميدلوك أن تسمحَ لها بالذّهاب إلى كوخِ أسرة مارتا في البرّية، حيث ستلتقي بأمِّها وتتناولُ طعامَها الريفيَّ الطيّب. قالت ماري في نفسها مستبشرةً: «ما أجملَ أن يتحققَ الكثيرُ من الأماني دفعةً واحدةً!» وسألت ماري مارتا بلهفة: «وهل تعتقد أمُّك أن السّيدة ميدلوك ستوافق؟» فأجابتها مارتا بالإيجاب.

أمضت الفتاتان بعض الوقتِ معًا. وعندما حانَ وقتُ الشاي هَمَّت مارتا بالنّزول إلى الطابق السّفلي لإحضارِ الشّاي. استوقفتها ماري قبل أن تنزلَ بسؤالٍ مفاجئٍ أذهلَها. سألتْ ماري: «هل تعاني خادمةُ غرفة غسيلِ الآنية ثانيةً آلام الأسنان؟» لاحظتْ ماري دهشةَ مارتا فشرحتْ لها كيف سمعتْ صوتَ أنينِها فيما كانت تسيرُ في الممشى.

أجابتها مارتا مُحَذِّرةً بقلقٍ: «ينبغي ألا تمشي في الممرّات حتّى لا تُغضبي السّيد كريفن». وخرجتْ مسرعةً وقد سمعت السّيدة ميدلوك تقرعُ الجرس.

قالت ماري في نفسها: «إنه أعجبُ بيتٍ يمكن أن يعيشَ فيه إنسان» وتهاوَت على المقعد الوثير بعد عناءِ ذلكَ اليوم الطّويلِ المُفْعم بالنشاطِ، وراحتْ في نومٍ عميقٍ.

تحسّنتْ نفسيّةُ ماري كثيراً بعد أن اكتشفتْ تلك الحديقةَ الّتي وصفتها بالحديقة السريّة. وصارتْ تحبُّ البقاءَ خارجَ المنزلِ. ولم تعدْ تَخْشى الرّيح بل صارتْ تستمتعُ بها. وصارت مِشْيتُها أسرعَ وأطول وثباتُها أكثرَ عدداً. لقد أصبح لديها ما تهتمّ به ويستغرق جُلَّ وقتِها: العناية بالحديقة الّتي شُغِفَتْ بها: كانت تكتشفُ في كل يوم شيئًا جديداً فيها. أمّا العجوز بن فقد باتَ أكثر استئناساً بها وتودّداً إليها. وكانت ماري بدورها تَأنَس بالحديث إليه ولا سيما بالحديث عن طائر الحنّاء الّذي كان كلاهما يُحبّه. كما كانتْ تحاول أن تكتسبَ منه الكثيرَ من المعلومات عن زراعةِ الأزهار. وكان البستانيُّ العجوزُ يُجيبها عن كل أسئلتها دون ضجر في البداية، وعندما بدأ يَتَبرَّم من كَثْرةِ أسئلتِها شعرتْ ماري أنَّ عليها أنْ تتركَه وشأنه، وتذهبَ لتلعبَ.

راحتْ ماري تستمتعُ بلعبةِ الوثب على الحبل إلى أن اقتربتْ من بوّابة تفتحُ على غابة. وَلجَتْها ماري آملةً أنْ تشاهدَ بعض الأرانب وهي تقفزُ من موضعٍ إلى آخر. وسمعتْ صوتَ صفيرٍ غيرِ مألوف لديها وأرادت أن تَستَطلع مصدرَه.

إنّه لأمرٌ شديدُ الغرابةِ حقًّا. حَبَسَتْ أنفاسَها وراحت تَتَطلَّع. كان

هناك ولدٌ يجلسُ تحت شجرةٍ يعزفُ على ناي خشبيٍّ قاسٍ. كان ولداً في الثّانية عشرة من عُمره، جميلَ الطّلعة، أحمرَ الوجنتين، أزرقَ العينين، نظيفًا. وكان يتجمّع حول الفتى سنجابٌ يتدلّى من غصن شجرةٍ، طويلُ الذيلِ يُطاول بعنقه، وأرنبان جالسان بالقرب منه. وبدا وكأنّها جميعًا قد جاءتْ لتسمعَ شدوَ النّاي الّذي كان يعزف عليه.

عندما رأى الفتى ماري رفع يدَه وتحدّث إليها بصوت خفيض: «لا تتحركي. وإلا فسوف يخافون».

تسمّرت ماري في مكانها. أما الفتى فقد توقّف عن العزف ونهض. وانصرفت الحيوانات مبتعدة. قال الفتى: «أنا ديكون. أعرف أنّك الآنسة ماري».

عرفت ماري أنّه ديكون قبل أن يُعَرِّفَ بنفسه. إذ مَنْ غيرُه يستطيعُ أن يجمعَ كلَّ هذه الحيوانات حوْله!

قال لها ديكون: «نهضتُ من مكاني ببطء لأنَّ الحركةَ السريعةَ قد تجعل الحيوانَ البريَّ يخاف».

لم يكنْ ديكون يتحدّث إليها كَمَنْ يقابلُها لأوّل مرّةٍ بَلْ كمن يعرِفُهَا معرفةً جيّدةً. ولكن ماري تحدّثتْ إليه بشيء من الانكماش وقد غلبَ عليها الخجل.

سألته ماري: «هل وصلتكَ رسالةُ مارتا؟»

هزَّ ديكون برأسِه وقال: «أجلْ، ولهذا جئت». وتابع يقول: «لقد أحضرتُ لك أدوات البسْتنة: الرفشَ والمشّاطة والشوكةَ والمِجْرَفة. كما أحضرت لك الكثيرَ من بذور الأزهار».

بدأ الشعورُ بالخجلِ عند ماري يتبدّد ويحلُّ محلَّه شعورٌ بالأُلفةِ نحو ديكون ذي الوجه الضاحك الّذي يتكلم من دون كلفة.

جلسا على قطعة خشب. وراح ديكون يُخْرِجُ من جيوبه رِزَمًا صغيرةً عليها صورُ أزهار. وقال لها: «هناك الكثير من بذور نبات البليحاء العطريّ ونبات الخَشْخاش». وراح يشرح لها خصائصَ كلِّ نبات. وبعد أنْ فرِغَ من ذلك سألها: «والآن أين ذلك الطائرُ ذو الصدر الأحمر الّذي تتحدّثين عنه؟» وسرعان ما سمعا صوت زقزقةٍ من على شجيرة كثيفة.

سألت ماري: «أحقًّا أنّه يدعونا؟»

«بالطبع – أجابها ديكون– إنّه يدعو مَنْ يعتقدُ أنه صَديقُهُ. إنّه كمنْ يريد أن يقول: أنا هنا، انظر إليّ. أريد أن أتحدَّثَ قليلاً».

اقتربَ ديكون من الشُّجَيْرةِ الّتي كانَ يقف عليها طائر الحنّاء بهدوء وراح يصفر له. أصغى الطائر قليلاً ثم أجابه بصفيرٍ مشابهٍ وكأنَّه يردُّ عليه.

قال ديكون: «إنَّه صديقُك.. وما كان ليقتربَ منكِ لو لم يكنْ كذلك. إنّه يتزيّن من أجلك. ألا تلاحظين ذلك؟»

وراح ديكون يُحدّثها عن لغة الطيور. ثم عاد يحدّثها عن البذور وكيفيّة غرسِها وسقايتِها ومتابعتِها. وقال لها فجأةً: «سوف أغْرِسُها لك بنفسي. فأين تلك الحديقة؟»

ما أحارَتْ ماري جوابًا. وشعرت بالارتباكِ لأنَّها لم تكن تتوقّع ذلك. تردّدت قليلاً ثم قالت: «هل يمكنك أن تحتفظَ بالسر إذا ما أطلعتُكَ على أمرٍ ما؟ إنه سرٌّ عظيم».

شعر ديكون بدورِه بشيءٍ مِنَ الحيرة. ولكنه أجابها بطريقة مرحة: «نعم أنا أحافظُ على الأسرارِ دومًا. إن أسرارَ البرّية كلّها عندي».

قالت ماري: «لقد سرقتُ حديقة. إنها ليستْ لي وليست لأحد. لا أحدَ يُريدها، أو يهتمُّ بها، أو يذهبُ إليها أبدًا. ولعلَّ كلَّ شيءٍ فيها قد يَبِسَ ومات. لا أدري». وتابعتْ ماري تُحَدِّثُ ديكون عن تلك الحديقة بشيءٍ من الحدّة. ثم انفجرتْ بالبكاء. سأل ديكون بشعورٍ من الدهشةِ والعطف معًا عن موقع تلك الحديقة. نهضتْ ماري وقالت له: «اتبعني!»

وقادتْه ماري إلى ذلك الممشى حيثُ تنمو أشجارُ اللبلاب بكثافة. وتبِعَها ديكون بهدوء بنظرةِ إشفاق. ووصلا إلى باب الحديقة، ودخلا معًا. قالت ماري: «ها هي ذي. إنها حديقةٌ سريّة. أنا الوحيدة في هذا العالم التي تريدها أن تبقى حيّة». راح يتطلّع حوله هنا وهناك بنظرة فاحصةٍ. ثم قال هامسًا: «إنه مكانٌ غريبٌ جميل! كما لو كان شخص يحلم».

عشُّ الطّائر

ظلَّ ديكون يتفحَّصُ ما حوله بضعَ دقائق. كانت عيناه تُتابعان كلَّ شيء في الحديقة: الأشجار اليابسة، والنباتات المتسلِّقة، والأغصانَ المتشابكة، والمقاعدَ الحَجَرية وأحواضَ الزّهرِ. وكانت ماري تُتابعه بناظريها. ولمّا فَرَغ من التمعُّن فيما حولْه قال بصوتٍ هامس: «لم أكنْ أتوقع أن أرى مثلَ هذا المكان. لا بُدَّ أنَّه يحفل بكثيرٍ من أعشاشِ الطّيور».

قالت ماري بصوت خافت: «هل يمكن أن يكونَ هناك ورود؟ أحسبُ أنّها يبِسَت جميعها».

وأخرج سكِّينًا من جيبه وقطع بها غصنًا من شجيرة يابسة ذاتِ أغصانٍ متشابكة. وتابع يقول: «هناك الكثيرُ من الشُّجيرات الميتة الّتي ينبغي قَطْعُها. وهناك الكثير من الشجيرات القديمة خَلَّفَت بَعْضَ البراعمِ الجديدة العام الماضي. ها هو ذا جُذيعٌ صغير». وأمسك ببرعمٍ ذي ساقٍ بنّيٍّ مخضوضر.

سألت بلهفة: «هل هذا البرعمُ حيّ؟».

فأجابها ديكون بابتسامة: «إنه حيٌّ نَضرٌ مثلي ومثلك».

قالت ماري بسعادة: «بودِّي لَوْ أنَّ كلَّ شجيرات الحديقة حيةٌ نضرة. تعالَ نَقُمْ بجولةٍ ونُحْصِ الشّجيرات الحيّة».

وراحا يتنقّلانِ من شجرةٍ إلى أخرى ومن شتلةٍ إلى أختها. وكان ديكون يُشير إلى بعضها، ويقول إنّها أُهملت بقسوةٍ، ولكنَّ القويّةَ منها استطاعتْ أنْ تبقى أما الضعيفة فقد يَبستْ. القويّةُ منها نمت وكَبُرَت وتفرَّعت. وقطع غصنًا يبدو يابسًا من شجرةٍ كبيرةٍ وقال لها: «قد يظنُّ المرءُ أنَّه غُصنُ شجرةٍ ميتة، ولكنَّ جذرَها حيّ. انظري إلى هذا الغصنِ داخله. ما زال فيه اخضرار».

وراح ديكون يشرح لها كيف تنبغي العنايةُ بنباتات هذه الحديقة وأشجارِها حتى تستعيدَ نضارتَها وجمالَها. وعلّمها كيف تُفرِّق بين اليابس والغضِّ من الغصون، وكيف تستخدمُ الرفشَ والمعولَ والمِعْزَقةَ، وهو ينبشُ التّربةَ حول جذورِ الأشجارِ حتّى يدخُل الهواءُ إليها. وراح يُعرِّفُها أنواعَ الأزهار والنباتاتِ العطريّة وهما يتابعان جولتهما في أرجاء الحديقة. هذا نرجسٌ برّيٌّ، وذاك نباتُ الزّعفرانِ، أو الحَبَق، وتلكَ زهرة اللبن. وحدّثها ديكون بشغفٍ فيما راحتْ ماري تُصغي بانتباهٍ واستمتاع، عن رائحة التّربة الذّكيّة بعد نَبْشِها أو بعدَ هُطولِ المطر، وعن رائحةِ الأزهار البرّيّة المُنْعشة. إنّها تُكسبُ المرءَ الصّحة والنّشاط ومقاومة أمراض الشّتاء.

كان يتكلّم ويعملُ في آن وماري تتبعُه وتساعده بشوكتِها أو

مِعْزَقَتِها. كانتْ ماري في غايةِ السّعادة وهي تساعدُه بالحفرِ والنّبشِ والتّفريق. وكان ديكون سعيداً بدوره في تلك الحديقة. أبدى استعدادَه لماري بالمجيء في كل يوم، صحواً كان الطقسُ أم ماطراً. وسُرَّت ماري لهذا الاقتراح أيَّما سرورٍ، وقالتْ له إنّها مستعدّةٌ أنْ تفعل أيَّ شيء من أجله. لا شكَّ أن مرافقَته سوف تُكسِبُها الكثيرَ من خبرةِ ديكون بالحياة البرّيّة.. بِطُيورِهَا وحيواناتها ونباتاتها.

توقّف ديكون فجأةً وقال وهو يَفْرُكُ رأسه:

« لابدَّ أنَّ هناك أحداً آخر غير طائر الحنّاء دَخَلَ هذه الحديقة المُغلقة منذ عشر سنوات! » اندهشتْ ماري لملاحظةِ ديكون. فالبوّابةُ كانتْ مغلقةً ومفتاحُها مدفونٌ في التّراب! قال ديكون وهو يتفحّص غصنًا: « ثمَّةَ تَعْليمٌ هنا وهناك لم يجرِ من وقت بعيد ».

بدا لماري أنَّ الحديقة بدأت تتغيّر بالفعل ذلك الصّباح، وهي تشاهد ديكون يحفرُ هنا وينبشُ هناك ويغرس البذورَ. إنها لن تنسى أبداً ذلك الصّباح.

أسرَّت ماري لديكون باستلطافها الشّديد له وهي تتابعه يعمل مسروراً مبتهجًا. وقالتْ له إنّه خامسُ شخصٍ تحبّه بعد أخته مارتا، وأمه، وطائر الحنّاء والبستانيّ العجوز بن. لم يستطيع ديكون أن يُخفي ضحكتَه وهو يسمعُ ذلك. عندئذ تقدّمت ماري وسألته سؤالاً ما كانت تُفَكّر أن تسألَه أحداً: « هل تحبني؟ »

أجابها ديكون بودّ: «نعم أحبُّك كما يُحبُّك طائرُ الحنّاء».

قالت ماري مبتهجة: «إذن هناك اثنان يحبّانني».

وراحا يعملان معًا بهمّةٍ وسعادة. وتضايقتْ ماري وهي تسمعُ ساعة القرية تعلنُ منتصفَ النّهار. ورأت ماري أنَّ الوقت قد حان كي تنصرفَ، وأنْ ينصرفَ ديكون أيضًا. ولكنَّ ديكون أعلمَها أنَّ من عادتهِ أن يأخذَ زَوّادَته معه عندما يخرجُ إلى البرّية. وسرعان ما أخرجَ من جيبِ معطفِه لفافةً نظيفةً تحتوي على بعض الشّطائرِ. وقال لَها إنَّ هناك أشياءَ كثيرةً لا بدَّ أن يفعلَها قبل أن يغادرَ المكان.

لم تكنْ ماري راغبةً في مفارقتِهِ، ولكنّها كانتْ مضطرّةً إلى ذلك. مشتْ بخطوات بطيئةٍ نحو الباب، ثم عادتْ أدراجَها وكاشَفَتْهُ بفكرةٍ كانت تُقْلِقُها:

- «مهما حدثَ فإنّك لن تُخبرَ أحدًا أليس كذلك؟»

ابتسم ديكون وتناول قضمةً كبيرةً من شطيرته ثم قال لها بابتسامة مُطَمْئِنة:

- «لو كنتِ طائرًا وكشفتِ لي عن موقع عُشِّك فهل يمكنْ أن أخبرَ أحدًا؟ لستُ من يفعلُ ذلك. أنتِ في أمانٍ كالطّائر الّذي يغادر عُشَّهُ إلى حين».

وكانتْ ماري واثقةً من كلامِه كلَّ الثّقة.

«هل لي بقطعةٍ صغيرةٍ من الأرض»

عادتْ ماري جَرْيًا إلى البيت وهي تلهثُ وقد احمرّتْ وجنتاها. كانتْ مارتا بانتظارِها وقد أعدّت لها طعامَ الغداء. سألتها مارتا بلهفةٍ: «لقد تأخرتِ. أين كنتِ؟»

وأخبرتْها ماري أنّها قابلتْ ديكون، وكانت سعيدةً بلقائه، فهو إنسانٌ رائعٌ. وكان من دواعي سرورِ مارتا أن تسمعَ ماري تَلْهَجُ بالثّناء على أخيها. وقالت لها إنَّها كانت واثقةً من أن ديكون سيكونُ محلَّ إعجابِها.

خَشيتْ ماري في البداية أن تسألها مارتا أسئلةً مُحْرِجةً عمّا ستفعلُه بالأدوات والبذور الّتي أحضرها لها ديكون. ولكنّها ارتاحت عندما اقترحتْ مارتا أن تستعينَ ماري بالبستاني العجوز بن الّذي قد يجدُ لها زاويةً ما من الأرض نائيةً عن الطّريق، حيث تستطيعُ أن تمارسَ هوايتَها».

التهمتْ ماري غداءَها بسرعةٍ ونهضت لِتَهُمَّ بالذهاب، ولكنَّ مارتا استوقفتْها قائلةً: «هناك أمرٌ لا بدَّ أن أخبرَك به. السّيد كريفن عادَ هذا الصباح وأعتقد أنه يريدُ أنْ يراك».

شحُبَ وجه ماري وتساءلتْ بدهشةٍ: «أوه! لماذا! لم يكنْ يريد أن يراني عندما جئت. لقد سمعتُ بيتشر يقولُ ذلك».

وشرحتْ لها مارتا أنّه يريد أن يقابلَها لأن أمّها الّتي التقته صدفةً طلبتْ منه ذلك. وقالتْ إنّها لا تعرف ما دارَ بينهما من حديثٍ عنها، ولكن يبدو أنها أقنعتْه بأنْ يراكِ قبل أن يُسافرَ ثانيةً غداً. وأضافت مارتا بأنَّ سفرَه هذه المرّة سيطولُ حتّي الخريف أو الشتاء القادم لأنّه سيزور عدّة بلدانٍ أجنبية.

سُرَّتْ ماري كثيرًا لفكرةِ غيابِه الطّويل، وقالتْ لمارتا: «أنا سعيدةٌ جدًّا!» وكان سببُ سرورها أن غيابَه الطّويل سيتيح لها المهلةَ الكافيةَ لإعادةِ الحياةِ إلى الحديقة السريّة.

ما كادتْ ماري تسألُ عن موعدِ لقائِه لها حتى فُتح البابُ ودلفتْ منه السّيدة ميدلوك. كانت في كاملِ هِندامِها، وكانت تبدو عصبيّةً. قالت بعصبية لماري: «إن شعرَكِ منكوش. اذهبي ومَشِّطيه». وطلبت من مارتا أن تُساعدَها في أن تلبسَ أفضلَ ما عندها، فالسّيد كريفن يريدُ مقابلتَها في مكتبِه.

شحُبت وجنتا ماري وبدأ قلبُها يخفقُ، وشعرت أنّها عادت طفلةً صامتةً ساذجةً جامدةً مرّةً أُخرى. لم تقلْ شيئًا للسّيدة ميدلوك، بل أدارتْ ظهرها ومشت إلى غرفةِ نومِها وخلفَها مارتا. وبعد أنْ ساعدتها مارتا في لباسِها وهندامِها مشتْ صامتةً وراءَ السّيدة

ميدلوك. وراحت تُحادثُ نفسَها: ماذا ستقولُ له؟ إنها مضطرّةٌ للقائه، ولكنَّ السّيد كريفن لَنْ يُحبَّها، وهي لن تُحبَّه. إنها تعرفُ ما سيظنّه بها.

قرعتِ السّيدة ميدلوك البابَ أخيراً في ركنٍ من البيت لم تَعْهَده ماري من قبل. دخلتا. كان السّيد كريفن جالسًا على كرسيٍّ وثيرٍ قربَ المدفأة. وعندما قدَّمت له السّيدة ميدلوك الآنسة ماري، طَلبَ منها أن تتركَها وتغادرَ الغرفة حتّى يطلبَها ثانيةً.

قالَ لها الرجل بعد أنْ أغلقَ البابَ أنْ تقتربَ. اقتربتْ ماري منه بتهيُّب. لم يكنْ قبيحًا. ولكن بدا لها وكأنّه لم يُسرّ للقائها وأنّه لا يعرفُ ماذا يفعلُ بها.

سألها السّيد كريفن ما إذا كانت على ما يرام، وما إذا كانوا يعتنون بها جيداً. أجابت ماري بالإيجاب. فركَ الرجل جبينه بانزعاج وقال وهو يتفحّصُها:

- «إنك نحيلةٌ جدًّا».

أجابت ماري ببرودة: «أنا الآن أكثر امتلاءً من ذي قبل».

بدا وجهُه لماري شديدَ التّعاسةِ، وعيناه غائمتَين وكأنّهما لا تنظران إليها، وأفكارُه مشتّتة. قال لها الرجل إنّه نسيها، وإنه كان ينوي أن يُرسلَ لها مربيّة ولكنه نسي أن يفعلَ ذلك.

قالت ماري بتلعثمٍ شديدٍ: «أنا.. أنا كبيرةٌ ولا أحتاجُ إلى مُربّيةٍ. أرجوكَ ألا تُعيّن لي مربّية».

تمتمَ الرجل بكلماتٍ وهو شاردُ الذهن: «ذلك ما قالته تلكَ المرأة».

استجمعتْ ماري شجاعتَها وسألته ما إذا كانت تلك المرأة هيَ أمّ مارتا، فأجابها السّيد كريفن بالإيجاب. سألها الرجل عمّا تنوي أنْ تفعلَه. فأجابته ماري بأنها تحبُّ أن تعلبَ خارجَ البيتِ لأنَّ ذلك يُكْسِبُها الصّحةَ والنّشاط. تحبُّ أن تعلبَ وتَثِب في كل مكان وتتابعَ ما يجري حولها. وسألتْه بقلقٍ بالغ: «هل أستطيعُ ذلك؟»

قال لها الرجل: «لا تقلقي هكذا. طبعًا تستطيعين ذلك. لا أستطيعُ أنْ أعطيَكِ شيئًا من الوقتِ والاهتمام، فأنا رجلٌ مريضٌ عاجزٌ، ولكنّني أتمنى لك أن تكوني سعيدةً ومرتاحة. لا أفهمُ شيئًا في شئونِ الأطفال، ولكنْ على السّيدة ميدلوك أن توفِّر لك كلَّ ما تحتاجين إليه. أنت تحتاجين إلى الهواء الطّلق والحريّة. العبي حيثما يحلو لك ومتِّعي نفسك. لقد أوصتني أم مارتا بكِ. فهل تريدين شيئًا؟ هل تريدين ألعابًا أو كتبًا؟»

قالت ماري وجِلَةً: «هل لي بقطعة صغيرةٍ من الأرض؟»

دُهش السّيد كريفن لطلبِها الغريب، وسألها ماذا تعني بسؤالها. فأجابتْه ماري مُتَلعثمةً بأنها تريدها لتزرعَ فيها البذورَ وتراها تنمو وتصبح نباتًا وأزهارًا.

حَمْلَق فيها السّيد كريفن برهةً ثم سألها بتؤدة: «هل تهتمّين بالحدائقِ كثيرًا؟»

قال لها الرجل بطيبة وهو يستمعُ إليها باهتمام: «تستطيعين أن تأخذي من الأرض بقدرِ ما تريدين. إنك تُذكّرينني بإنسان أحبَّ الأرضَ والمزروعات. عندما ترين قطعةً من الأرض تحببينها.. خذيها يا طفلتي واجعليها حيّة».

وسألته الفتاة: «وهل أستطيعُ أن آخذها من أي مكانٍ إذا لم يكن ثَمَّة حاجةٌ إليها؟» فأجابها الرجل بالإيجاب، وودَّعها وقال إنه سيغيبُ الصيفَ بطولِه. واستدعى السّيدة ميدلوك وأوصاها أن تعتني بها وألا تضيّقَ عليها، فهي فتاةٌ تحبُّ الانطلاقَ والحريّة.

سُرَّت السّيدة ميدلوك لما سمعتْ من سيّدها. لقد أراحها من مُهِمَّةِ المتابعةِ الدقيقةِ لماري الّتي كانتْ تعتبرُها مُهمَّةً مُتْعبة.

هُرعتْ ماري إلى غرفتها فوجدت مارتا في انتظارها. صاحتْ ماري مستبشرةً عندما رأتْ مارتا: «أستطيع أن أحصلَ على حديقتي!.. ولن يكونَ عندي مربّيةٌ حتّي وقتٍ طويل! كما أنّني أستطيعُ أنْ أذهبَ لزيارتكم في الكوخ.. لقد قالَ إنّني أستطيعُ أنْ أفعلَ ما أشاءُ أينما أشاء!»

سُرّت مارتا كثيراً لما سمعتْ. أمّا ماري فقد أسرعتْ إلى الحديقة فقد تأخَّرت على ديكون أكْثَرَ ممّا ينبغي. وعندما دلفتْ إلى الحديقة لم تَرَهُ حيثُ تركْته، بلْ وجدتْ أدوات الفلاحة قد وُضعت تحتَ شجرة. تفَقَّدته ماري فلمْ تجدْه. ولكنها وجدتْ رسالةً علّقها في مكانٍ بارزٍ على شجرةٍ يقول فيها إنه سيعود، مع صورة طائرٍ في عُشّه.

كولين

أدركتْ ماري عندما عادتْ إلى البيتِ، وتأمّلت الصّورة الّتي تَركها لها ديكون في الحديقةِ، أنَّ الصورةَ لم تكنْ إلا رسالةً يؤكّد فيها على حفاظِه على سرِّها. فالعُشُّ يمثّل حديقتَها وأما الطّائر فهو يُمَثِّلُها. شَعرتْ ماري بالحبِّ نحوَه ونامتْ على أملِ لقائِه في اليوم التالي. ولكنَّ ماري استيقظتْ في ظلام اللّيل الحالك على الرّياح العاصفةِ والأمطارِ الّتي تهطلُ مِدْراراً. إنّه طقسُ يوركشاير المتقلّب في الربيع. شَعرتْ ماري بالحنق والقلق ولم تستطيعِ النّوم وهي تسمعُ صوتَ الرّيحِ. وظلّتْ تتقلّبُ في الفراشِ حتي سمعتْ صوتًا جعلها تنهضُ وتصيخُ السَّمع. لم يكنْ صوتَ الرّيح هذه المرة، بل كان الصراخَ الّذي سمعتْه من قبل. كان الصوتُ آتيًا من الممرِّ في الأسفل.. صوتُ أنينٍ خافت. وشَعرتْ أنَّ عليها أنْ تَكْشِفَ أمرَ هذا الصّوت، فلعلَّ في الأمرِ سرًّا أكبَر من سرِّ الحديقة ومفتاحها المطمور.

قامتْ ماري من فراشها لتكتشفَ الحقيقة، وهي تقولُ في نفسها: الجميع نائمون الآن.. ولا يهمّني أمرُ السّيدة ميدلوك. وحملتْ شمعةً كانت إلى جانب سريرِها وخرجتْ. اتّبَعت الطريقَ الّذي سلكتْه في المرّة الفائتةِ وهي تلاحقُ الصّوت الذي كان يتوقّف برهةً ثمّ يعود.

وصلتْ إلى الباب المغطّى بالقماشِ ودفعته برفقٍ وأغلقته خلْفَها. وقفتْ برهة في الممشي ثم تابعت الصّوتَ الّذي باتَ الآن أوضح.. اقتربتْ من الغرفة الّتي ينبعثُ منها الصّوت.. وتبيّن لها أنّه صوتُ بكاءِ صغير. فتحتِ البابَ ووجدتْ نفسَها داخلَ الغرفةِ.. غرفةٌ كبيرة ذاتُ أثاثٍ أنيقٍ عتيق. كان في الموقد بقايا نارٍ تشتعل، وضوءٌ ليليٌّ خافتٌ إلى جانب السّريرِ الّذي رقد عليه طفلٌ يبكي بألم.

بدا الطّفلُ ذو الملامح الرقيقة والوجه العاجيّ مريضًا، ولكنَّ بكاءه بدا ناجمًا عن حزنٍ وتعبٍ أكثر مما هو آتٍ عن ألم. حبستْ ماري أنفاسَها وهي لا تزال تحملُ الشّمعة. لفتَ الضّوء انتباهَ الصّبيّ فأدارَ وجهَه نحوها وراح يحملِقُ فيها.. ثم لم يلبثْ أن سألَ بصوتٍ خافتٍ خائفًا: «من أنتِ؟ هل أنت شبحٌ؟»

أجابته ماري بالنّفي وهي تحدّق بدورها في عينيه الواسعتين الغريبتين. وسألته: «وأنت؟» أجابها الصّبيُّ بعد تردّد: «أنا كولين.. كولين كريفن».

قالت ماري: «وأنا ماري لينوكس. والسّيد كريفن عمي».

قال الصبي: «إنّه أبي».

دُهِشَت ماري عند سماعِها ذلك. إذ لم تكنْ تعلم من قبلُ أو أن أحداً لم يخبرْها أن للسيد كريفن ولداً صغيراً. اقتربت ماري منه وراحت تلاطفُه حتي يستأنسَ بها. وسألته عن سبب بكائه. كان

الطفلُ كولين يبكي بسبب صداعٍ في رأسه. وعرفتْ ماري من الطّفل أنه لا يعرف شيئًا عن قدومها إلى القصرِ، ولم يخبرْه أحدٌ بذلك حتي لا يحاول أن يراها أو تحاول هي أنْ تراه. وقال لها الصّبي إنَّ أباه لا يريد لأحدٍ أنْ يراه. فهو دائمًا على هذه الحالِ مريضٌ قعيدُ الفراش. وقال أيضًا إنه إنْ عاش فسيكون أحدبَ كأبيه، وهذا ما يُقلق والده ويجعله يكره التَّفْكيرَ فيه.

قالت ماري مذهولةً: «أوّاه. أيُّ بيتٍ عجيب هذا! كل ما فيه سر.. كلُّ ما فيه مُغلق.. هل يُغْلقون الباب عليك أيضًا؟!».

أجابها الفتى: «كلا. أنا أبقي في غرفتي لأنّني لا أريدُ أنْ أخرُجَ منها. والدي يأتي أحيانًا ليراني عندما أكونُ نائمًا غالبًا».

وعندما سألته ماري عن سرِّ هذا الجفاء أجابها الصّبي بأن والده يكرهُه لأن أمَّه ماتتْ عندما وضعته. وعرفت ماري الآن أنَّ هذا سببَ كرههِ للحديقةِ أيضًا.

وعرفت ماري من الصَّبي أنّه يقيمُ معظم الوقت في غرفته. إنّه يكْرَه الخروج أمام النّاس بسببِ حَدْبَتِه. وشعرت ماري أن الصَّبي يستأنسُ بها ويودُّ أنْ يعرف منها أشياءَ كثيرة. حدّثْته ماري عن حياتها قبل مجيئها إلى «ميسيل ثويت»، وعن رحلتِها عَبْرَ المُحيط، وأجابتْ على الكثيرِ من أسئلته. ولاحظتْ ماري أنّه بسبب عجزه لم يتلقَّ تعليمًا كافيًا..

وراحَ الفتى بدورِه يُحدّثُها عن نفسه، وكيفَ يحرصُ الجميع على مَرْضاته وكسبِ ودّه، إنّهم يعتقدون أنّه لن يعيشَ طويلاً. كان يتحدّث على طريقته بلا مبالاة، ولكنّه يهتمّ بحديث ماري إليه. وأرادَ أن يفتح موضوعًا جديداً للكلامِ فسألها عن عمرها. فأجابته ماري بأنها في العاشرة، في مثل سنِّه. وعندما سألها الصّبي مندهشًا كيف عرفتْ عمره أجابته ماري: «لأنَّك يوم ولِدْتَ أُغلقَ بابُ الحديقة ودُفِن مفتاحُها. وقد ظلّت مُغلَقةً عشرَ سنوات».

اعتدلَ كولين في سريره ملتفتًا إليها مُتكئًا على مرفقيه وسألها باهتمام عن أيةِ حديقةٍ تتحدّث، ومن أَغْلَقها ولماذا. فحدّثتْه ماري عن تلك الحديقةِ التي أغلقها والدُه لأنّه كان يكرهُها، ومنَعَ الآخرين من دخولها.

أثارتْ روايةُ ماري عن الحديقة الخفيّة فضولَ كولين فراحَ يَطْرح السّؤال تِلْوَ السّؤال. وشعرتْ ماري أنها تسرَّعت في إعلام الفتي بقصّة تلك الحديقة التي تشبّث بمعرفة كلِّ شيء عنها. وحاولتْ أن تُحذِّره من عواقبِ السّؤال عن ذلك الموضوع، وخشيتْ أن يُفسدَ ذلك الولدُ كلَّ شيء. وعمدتْ إلى تغييرِ مَجْرى الحديث حتّي ينسى موضوع الحديقةِ، وجعلتْه مرّة أخرى يتحدث عن نفسه. وعاد كولين إلى الحديث عن المرضِ والموتِ. إنّه يشعر باقترابِ الموت عندما يطرحُه المرض في الفراشِ فيبكي ويبكي. قالتْ له ماري إنّها سمعتْ صوتَ بكائِهِ ثلاثَ مرّات ولكنها لم تكن تعرفْ من الذي كان

يبكي. ولكنَّ الصَّبي عادَ إلى موضوع الحديقة، وأعربَ عن رغبتِه في رؤيتها. وقال: «أريدها أنْ تُفتحَ لي وأن ينقلوني إليها، وسأدعكِ تذهبين إليها أيضاً».

شعرتْ ماري أنَّ كل شيء قد ضاع، وأنَّ ديكون لن يعودَ ثانية إلى الحديقة، كما شعرتْ بأنها فقدتْ ملاذَها الآمن. ولم تملكْ إلا أنْ قالت بغضب: «كلا.. كلا! لا تفعلْ ذلك». أبدى الغلام استغرابَه رفْضَها وقد كانتْ تريد أنْ تراها. قالت له ماري، وكأنّها تحاول أن تُداري الموضوعَ وتبقيه سرًّا، بأنه إذا أخبرهم فلن تعودَ الحديقة سرِّية. وتابعتْ تقول: «إذا لم يعلمْ أحدٌ بها إلا أنا وأنت فسوف نتسلّلُ إليها وحدَنا ونغلقُ الباب خلفنا، دونَ أنْ يعلم أحدٌ بوجودِنا.. وسوفَ ندعوها حديقتَنا.. سنكونُ كطائرين يأويان إلى عُشّيهما.. وسنحاولُ أن نُعيد إليها نضارتَها ثانية». وراحتْ تحدّثُه عن مباهجِ الحديقةِ والعملِ فيها، وعن الرّبيع، والشّمس وما يفعلانه بالزّهر والنباتِ. كانت تتحدّث بحماسةٍ محاولةً إقناعَهُ بحلاوةِ الاحتفاظ بسرِّها.

بدأ الغلام يقتنع. وراقَه أن يحتفظَ بسرٍّ كهذا. وشعرتْ ماري عندئذٍ بشيءٍ من الارتياح.

قال لها الغلامُ: «أريدُ أن أُطْلِعَك على شيء». وطلبَ إلى ماري أن تزيحَ ستارةً حريريّةً مُعَلّقةً على الجدارِ. أزاحتْ ماري السّتارة فتكشّفت عن لوحةٍ لصورةِ امرأةٍ شابةٍ جميلةٍ، تُشبه عيناها عيني

كولين الواسعتين. قال لها الغلامُ بأسى: «إنّها أمي.. لا أعرف لماذا ماتت.. لو أنها عاشتْ لما كنتُ أشعر بالمرض دومًا. بلْ ولكنت أريدُ الحياة، وما كان أبي ليكرهَني».

سألته ماري وهي تُعيد السّتارةَ إلى مكانها عن سبب وضع تلك السّتارة، فقال الفتى: «أنا طلبتُ وضعها. إنّها أمي ولا أريد أنْ يراها أحد».

ران قليلٌ من الصّمت. ثم سألت ماري الغلامَ عمّا يمكن أن تفعلَه السّيدة ميدلوك إذا عرفتْ أنّها كانت هنا. فقال الفتى:

- «ستفعلُ ما آمرُها به. وسأُخبِرُها أنني أريدك أن تأتي إليَّ كلَّ يوم. أنا سعيدٌ بقدومك».

قالت له ماري إنها سعيدةٌ أيضًا وستحاول أن تأتي إليه كلما استطاعتْ ذلك. ولكن عليها أنْ تبحثَ كلَّ يومٍ عن مدخلِ الحديقة. اقتنعَ كولين بذلك وطلب إليها أن تُطْلعَه على ما يستجدُّ معها. وقال لها إنه سيحتفظُ بسرِّها أيضًا، ولن يخبرَ أحدًا بزيارتها له. وسيرسل المربّية مارتا في طلبها حينَ يريدُ لقاءَها.

سُرَّت ماري لفكرةِ لقائه عن طريق مارتا. لقد أدركتْ ماري الآن أن مارتا كانتْ تعلم عن الغلام كلَّ شيء، ولكنها كانت تحاولُ أنْ تخفيَ عليها.

أرادتْ ماري الانصراف، ولكنَّ الغلام تمنّى عليها ألا تغادر الغرفةَ



قبل أن ينام. قالت له ماري: «أغمض عينيك . سأُرَبِّتُ على يدك وأغنّي لكَ أغنيةً بصوتٍ خفيضٍ كما كانتْ تفعل معي مربيتي آيا».

شعرتْ ماري بالأسف له وراحت تُرَنِّمُ له بصوتٍ خفيضٍ أغنيةً هنديّةً. كان الصّبي سعيداً بترنيمها.. وسرعانَ ما غطَّ في نومٍ عميقٍ.

أخذتْ ماري شمعتَها وانسلّتْ برقّةٍ دون أن تُحْدِث أيَّ صوت.

الأمير الصغير

كانَ الضّبابُ يَلُفُّ البرّيّةَ ذلكَ الصَّباح والمطرُ المدرارُ لَمْ يتوقّف عن الهطول. لم تستطعْ ماري الخروج، كما لم تستطعْ أنْ تقابلَ مارتا الّتي كانتْ مشغولةً بأعمالِ المنزلِ. وعندما التقتْها بعدَ الظّهر فاجأتْها بأنّها باتتْ تَعْرِفُ سرَّ ذلك البكاء. إنّه كولين. لَقَدْ وجَدَتهُ.

احمرَّ وجهُ مارتا وقالتْ وهي تكادُ تبكي: «ما كانَ ينبغي أن تفعلي ذلك يا آنسة ماري. هذا سيُوقعني في ورطةٍ. سأفقدُ عملي، فماذا ستفعل أمي!».

طَمْأنتْها ماري قائلةً إنّها لَنْ تفقدَ عملَها، فقدْ تحدّثا طويلاً وكانَ سعيداً لزيارتها له. وأخذتْ ماري تحدّثُها عن تفاصيلِ لقائِها بالأمسِ مع كولين، وكيفَ تعلّق بها وكان وديعًا للغاية معها.

لم تصدّق مارتا أذنيها. لقد كانَ انطباعُها الأكيد عنه، كشأن جميعِ الخدم، أنّه ولدٌ مشاكسٌ أفسَده الدلال، وهو يتعمّد إثارةَ المتاعب. وأعربتْ مارتا عن خوفها أن تعلم السّيدة ميدلوك بهذا الأمر لأنها ستعمدُ إلى طردِها عندئذٍ.

طمأنتْها ماري ثانية وقالت إنّ الصّبي لن يُخبرَ أحداً، فقد اتّفقا

على أنْ يبقى سرًّا بينهما. وأضافتْ بأنّها ستكونُ الرّسولَ بينها وبينه كلّما رَغِبَ في رؤيتها والتحدُّثِ إليها. وقالت لها: «إنّه ولد طيّبٌ وهو يودّني كثيراً».

قالتْ مارتا وهي لا تزال مذهولةً: «لا بدّ أنّكِ قدْ سحرتِه!»

أجابتها ماري بثقةٍ بأنها لا تعرفُ شيئًا من السّحر. كلّ ما في الأمر أنّها عرفتْ كيفَ تُلاطفُه وتدخلُ إلى قلبه.

اطمأنّتْ مارتا وراحتْ تحدّث ماري عن كولين.. عن نشأته ومرضه ومعاناته، وعن رأي أمّها في وضعه الصّحي. وكانتْ تُجيبُ ماري عن كلِّ ما تعرف عنه. وقالت مارتا إنَّ أمَّها تعتقدُ أن الصبي بحاجةٍ إلى الخروج إلى الهواء الطّلق والنسيم العليل.

قُرِع الجرسُ وهُرعت مارتا. غابتْ بضعَ دقائق ثمَّ عادتْ إلى ماري مُندَهِشَةً، وقالتْ: «ألم أقلْ لك إنّك قد سحرتِه! لقد طلبَ إلى مربّيته أن تتركَه حتى السّاعة السّادسة. ثم طلبَني وأبلغني أن أخبرك بأنّه يريد التّحدثَ إليك، ويُذكِّرك بألا تخبري أحداً بذلك..».

كانتْ ماري راغبةً بدورها بلقائه. دخلتْ غرفتَه هذه المرّة في ضوء النهار، واكتشفتْ كم هي جميلةٌ حقًّا. كانتْ تبدو مريحةً ومشرقةً على الرّغم من الضّبابِ في الخارج. وبدا لها كولين وقد ارتدى رداء من القطيفة واستندَ إلى وسادة مُطَرَّزة أشبهَ بالصّورة.

قال لها كولين: «اقتربي. لقد كنتُ أفكّر فيك طوالَ الصّباح».

قـالتْ مـاري: «وأنا كنتُ أفكّر فـيك أيضًـا، أنـت لا تتـصـوّر كـم كـانتْ مـارتـا مـذعـورة. إنهـا تتـصـوَّر أنَّ السّـيـدة مـيـدلوك سـوف تطردُها.. إذا ما علمتْ بلقائنا..».

قَطَّبَ كـولين جبينه وطلبَ إلى مـاري أن تُحْضِر مارتا من الغـرفـةِ المجاورة. عـادت ماري ومـعهـا مارتا الّتي كـانـتْ تَرتَعش. سألهـا كـولين وهو لا يزال مقطّبًا:

– «أما عليكِ أنْ تفعلي ما يَسرّني.. وكـذلك ميدلوك؟!»

أجابتْ مارتا متلعثمةً: «كلٌّ واحدٍ يفعل ما يرضيك يا سيّدي».

– «حسنًا. إذا طلبتُ منك أنْ تحضـري الآنسة مـاري إليَّ فَكَيْفَ يسعُ ميدلوك أنْ تطردك إذا ما عرفَت ذلك؟»

رجَتْه مـارتا ألا يفـعـل مـتـوسِّلةً. فـأجابهـا كـولين بـقـوّة إنّه سـيطردُ مـيـدلوك إذا مـا نَبَـسَت ببنتِ شَفَة حولَ هذا الموضـوع. وتابع كـولين يقـول: «إنّها لَنْ تجرؤ على فـعلِ شيء فـاطْمَئِنّي. سوف اهتمّ بأمرِك. والآن انصرفي».

استـغربـتْ ماري طريـقةَ كـولين في الحـديث وراحـتْ تُحَدّقُ فـيـه. لاحظ كـولين نـظرتَهـا، وسـألهـا عن سرٍّ دهشـتِهـا. قـالـتْ له مـاري إنه يُذكّرها بصبيٍّ في الهند كان أميرًا، «راجـا». كان يتحدّث إلى شعبه كـمـا كـانَ يتـحـدّث هو إلى مـارتا. وكـان الجـمـيع يطيـعـونه خـشـيـةً ورُعْبًا. وتابعـتْ ماري حديثَها منتقلةً إلى مقارنةٍ أُخرى. حدَّثَته عن

الفتى ديكون شقيقِ مارتا الّذي تَسْتأنِسُ الحيواناتُ والطيور به ويَجْذِبُها إليه بصوت نايهِ السّاحر.

أصغى كولين بانتباهٍ إلى حديثِ ماري عن ديكون وحُبِّهِ الجمّ لمخلوقاتِ البرّية.. وطلبَ إلى ماري أنْ تخبرَه بالمزيدِ عنه. تابعتْ ماري حديثَها بشغفٍ وراحتْ تتكلّم عن سحر البرّية بمخلوقاتِها ونباتاتها وغرائبها.

قالَ لها كولين باكتئابٍ إنَّ المرءَ لا يستطيع أنْ يرى شيئًا عندما يكونُ مريضًا. إنّه لا يستطيع أنْ يخرج إلى البرّية. فقالتْ له ماري بتصميمٍ إنّه يستطيعَ ذلك قريبًا. وقَرَّعته عندما عاد يتحدّث عن الموتِ وكأنَّه يتحجج بذلك. ودَعتْه إلى أن يتخلّى عن تلكَ الأوهامِ الّتي تعشّش في رأسه حولَ كراهيةِ كلٍّ من حولَه له وتمنّيهم موتَه.

كان لكلماتِ ماري تأثيرٌ مُشجِّعٌ على كولين. وراحَ يستذْكِرُ أمامها كلماتِ الطّبيب الّذي جاءَ من لندن ليعوده. إنّه يتذكَّر الآن أنه قال إنَّ الصَّبيَّ يمكنُ أنْ يعيش إذا ما صمَّم على ذلك. ونصحَ بأنْ يُحاط بجوٍّ من المرح.

قالتْ له ماري، وقد خَطَر ديكون في بالِها، إنّها تعرفُ مَنْ يستطيعُ أنْ يُحيطَه بمثلِ هذا الجو. إنّه يتحدَّث عن الحياةِ دومًا، ولا يتحدّثُ أبدًا عن الموتِ أو المرض.. إنه ضاحكٌ متفائلٌ دائمًا يطفحُ وجهُه بِشْرًا. واقتربتْ ماري منه وقالت: «انظر. دعنا لا نتحدّث عن

الموتِ، فأنا لا أحبُّ ذلك. دَعْنا نتحدّث عن الحياة. دَعْنا نتحدّث عن ديكون».

وراحتْ ماري تتحدّث بحماسةٍ وإسهابٍ عن ديكون وأسرته وحياته في البرّية. وكانَ كولين يُصغي إليها باهتمامٍ، ويُحادثُها. وراحَ الاثنان يضحكانِ كما يضحكُ الأطفالُ عندما يكونون سعداء.

كانا سعيدين معًا حتّي إنّهما نسيا كلَّ شيءٍ حتّي الوقتَ. وهنا تذكّر كولين شيئًا مُهمًّا، وقالَ: «هل تعلمين أنَّ هناك شيئًا لم نفكّر به مطلقًا.. نحنُ أولادُ عمومة». وكانَ من الغريبِ حقًّا أنْ يتحدّثا كثيراً وأنْ لا يتذكّرا هذه الحقيقةَ البسيطة. وهذا ما جعلهما يَضْحكان أكثرَ ويزدادان سعادة. وفي غَمْرة سعادتِهما فُتِحَ الباب، ودخل إلى الغرفة الطّبيب كريفن والسّيدة ميدلوك. شَعَرَ كلاهما بالذهول لرؤيةِ كولين وماري. وشَهقَتِ السّيدة ميدلوك وهي تقول: «يا إلهي!»

قالَ الدكتور كريفن، وهو يقتربُ من كولين: «ما هذا؟ ما معنى هذا؟» أجابَ كولين دون أن يُظهرَ أيَّ اهتمامٍ بمخاوفِهما: «هذه ابنةُ عمّي ماري لينوكس. أنا أحبُّها، وقد طلبتُ إليها أن تأتيَ إليَّ وتُحادثني. إنّها ستزورُني كلّما طلبتُ منها ذلك». نَظَر الدكتور كريفن إلى ميدلوك نظرةَ لومٍ شديدٍ. فقالتْ له بارتباكٍ: «أوه يا سيدي.. لا أعرفُ كيف جري ذلك. لا يجرؤ أحدٌ من الخدم على أن يبوحَ بشيء!».

قال كولين: «لم يُخبرها أحدٌ بشيءٍ. لقد سَمِعَتْني أبكي ووجدتْني بنفسها. أنا سعيدٌ بذلك. لا تكوني سخيفةً يا ميدلوك».

لاحظتْ ماري أن الدكتور كريفن لم يكنْ مسروراً، ولكنّه لم يكنْ يجرؤ على معارضة مريضه. جلس قرب كولين وقاسَ له ضغطَه ثم قال: «أخْشى عليك من الإثارةِ الشديدة. إنها تضرُّ بك يا ولدي».

أجابَ كولين وقد بدأتْ عيناه تُشعّان بالغضب: «سأشعرُ بالقلق إذا ما أُبعدتْ عنّي. أنا أفضلُ الآن، وهي الّتي جعلَتني أفضل».

نظرت السّيدة ميدلوك والدكتور كريفن كلٌّ منهما إلى الآخر بحيرةٍ وقلقٍ وقد أُسْقِطَ في أيدهما. وتوجّه كولين إلى ميدلوك بالتّقريع حين حاولتْ أنْ تنتقدَ وجودَ ماري، وطلبَ إليها أن تُحْضِرَ له طعامَ إفطارِه في الحال.

لم يبقَ الدّكتور كريفن في الغرفةِ طويلاً. فقد تحدّث قليلاً إلى المربية، ثم راحَ يكرّر على مسامعِ كولين التّحذيراتِ المعتادة. حدّقَ فيه كولين عابِسًا وأجابَه بانزعاج: «أريدُ أن أنسى ما تحذّرُني منه، لقد جعلتْني ماري أنساها، ولهذا أُريدُها».

خرجَ الدكتور كريفن من الغرفةِ منزعجًا. ولم ينسَ أن يُلْقيَ نظرةَ استفهامٍ على ماري جعلتْها تنكمشُ على نفسها.

تنفّسَ كولين الصُّعَداءَ بعد ذهابِه، والتفت إلى ماري قائلاً: حدّثيني عن مهراجات الهند.

بناءُ العُشّ

بعد أسبوعٍ آخرَ من الأمطارِ انبلجَ قوسُ السّماء الزّرقاء وأشرقت الشّمس ثانيةً. ولمْ تَشْعرْ ماري بالمللِ طوالَ تلك الفترة لأنّها لم تزر الحديقة السريّة ولم تلتقِ ديكون، فقد عرفتْ كيفَ تملأُ وقتَها. كانتْ تُمضي ساعاتٍ كلَّ يومٍ مع كولين في غرفتِه، تتحدّث عن أمراءِ الهندِ (المهراجات) أو الحدائقِ، أو ديكون وكوخه وبريّته. وكانتْ تقرأُ له أحيانًا أو يقرأ لها.

حاولتْ ماري في أحاديثِها مع كولين أنْ تظلَّ مُتَحَفِّظَةً، وأنْ تستكشفَ بعضَ الأشياءِ منه بطريقةٍ غيرِ مباشرة. وفي طليعةِ هذه الأشياء أن تتأكّد من أنّه يحفظُ السّر، وإذا كان كذلك فهل يمكن اصطحابُه إلى الحديقةِ دون أن يعرفَ بذلك أحدٌ؟ وكانت تفكّر بأنّه إذا كان الطّبيب الكبير قد أوصى بأنْ يخرجَ كولين إلى الهواء الطّلقِ، وهو ما يرغبُ به كولين، فإنَّ من شأنِ الهواء الطّلق والتّعرف على ديكون وطائر الحنّاء أنْ يطردا فكرةَ الموتِ من رأسه. إذا كان هواء البرّية قد غيّر كثيراً من طبيعتِها وخِصالها فلماذا لا يغيّر كولين أيضًا! وتابعتْ ماري تفكّر بينها وبين نفسها: ولكنْ إذا كان كولين يكرَهُ أن ينظرَ الناسُ إليه فقد لا يرغبُ في رؤيةِ ديكون.

وعرفتْ ماري أن سرَّ كراهيةِ كولين النَّاسَ يعودُ إلى نظرةِ الإشفاقِ التي كانوا ينظرون بها إليه منذ صِغرِهِ، وهي ما كان يُولِّدُ لديه ردَّ فعلٍ عدوانيًّا. وشعرتْ ماري براحةٍ بالغة عندما علمتْ من كولين أنَّه لا يُمانع في لقاءِ ديكون الّذي يُحبُّه الطّيرُ والحيوان.

استيقظتْ ماري باكرًا جدًّا في صباحِ أوَّل يومٍ مشرقٍ، وقفزتْ من فراشها وهُرِعت إلى النافذةِ لتَسْتَنْشِقَ الهواءَ العليلَ، بدا لها كلٌّ ما حوْلها قَدْ أصابه شيءٌ من السّحْر. كانتِ الطّيور تَشْدو، والشّمسُ تُوحي بالدِّفء، والسّماء قد ازدانت ببعضِ الغيوم الضاربةِ إلى الحمرة. وشعرتْ ماري فجأةً أنّها في شوقٍ إلى رؤيةِ الحديقة. وعَزَمَتْ على ألا تُضيعَ وقتًا. وأسرعتْ إلى البابِ الخارجيّ بعْدَ أن ارتدتْ ملابِسَها بمفردها. وركضتْ باتجاه حديقتها السرية وهي تكاد تطيرُ فرحًا. وفي طريقها إلى الحديقة بدا لها كلّ شيء مختلفًا. العشبُ أشدُّ خضرةً، وأوراقُ الأشجار أكثرُ نضارة. وقالت ماري تُحدّث نفسها: «لا بدَّ أنْ يأتي ديكون بعد ظهرِ اليوم».

ما إنْ دخلتْ ماري الحديقةَ حتّى رأتْ ديكون مُنْكَبًّا فوقَ العشبِ يعملُ بدأب. صاحتْ ماري فَرِحَةً: «ديكون! ديكون! كيف وصلتَ إلى هنا باكرًا!» نهضَ ديكون فرحًا وقال ضاحكًا وعيناهُ الزرقاوان تبرقان وقال: «وكيف يَسَعُني أنْ أبقى في الفراشِ وكلٌّ ما حولي جميلٌ هذا الصّباح! عندما ترتفعُ الشّمس في البرّية تصبحُ مُتْعةً لا

تُجاري، فأراني أركضُ فيها كالمجنونِ وأنا أصيحُ وأُغنّي.. أجلْ لم أستَطِع البقاءَ لأنَّ الحديقة تنتظِرُنا».

وراحا يتجوَّلان في الحديقةِ ويتفقّدان الأزهارَ والورودَ، ويتفقّدان البراعمَ والبقع الخضراء هنا وهناك.. ويركُضان من مكانٍ إلى آخرَ، ويَسْتَنْشِقان عبيرَ الطّبيعة، ورائحةَ الترابِ النديِّ، ويتضاحكان ببراءةِ الأطفال.

وفيما هما يتجوّلان رأيا طائر الحنّاء يبني عُشَّه. قال ديكون لماري إنَّ عليهما أنْ يراقباه من بعيدٍ دون أن يُشْعِراه بوجودهما. فالطّائر لا يُحبّ أن يراه أحدٌ وهو يَبْني عُشَّه. الطيور تبني أعشاشها في فصل الرّبيع.

ظَلا يُتابعان الطّائرَ عن بُعد. ووجدتْ ماري الفرصةَ مناسبةً كي تحدِّث ديكون عن كولين. حَكَتْ له كلَّ شيء. وأبدى ديكون سرورَه لِما سَمِع، ورَحَّب بأنْ يعرِّفَ كولين سرَّ الحديقة، فهو لا يريدُ أن يبقى هذا الأمرُ سرًّا. لقد أعْلَمَ والدتَه بأمرِ الحديقةِ، ولم تجدْ في ذلك ما يُضيرُ. وقال ديكون إنه يعلمُ بوجودِ كولين، لأن السّيدة ميدلوك كانتْ تتحدّث عنه لوالدته عندما كانت تمرُّ عليهم في الكوخ. واكتشفتْ ماري أنه يعرفُ عن كولين الكثير، فسألتْه ما إذا كان يعتقد أنّه سيموت. أجابها ديكون: «كلا.. ولكنّه طفلٌ يائس.. إنّه يخشى أنْ يصبح أحدبَ كأبيه عندما يكبر. وهذا سرُّ يَأْسِهِ» وتابع ديكون يقول: «عليه ألا يبقى راقداً في الفراشِ يفكِّر

فيما قَدْ يصيبُه.. إنّه لن يتحسَّنَ أبداً بهذه الطريقة».

تلفَّتَ ديكون حولَهُ وهو يتابعُ بزهوٍّ بعضَ مظاهرِ الخضرةِ والحياةِ الّتي بدأت تتجلّى في الحديقة بعد طولِ موات. وتابعَ حديثَه قائلاً: «أتعرفين بمَ أفكّر.. أفكّر لو أنّ كولين يأتي إلى هنا فلَن يعودَ إلى التّفكير في حَدَبَتِه.. سوفَ يجدُ أشياء كثيرةً تُلْهيه عن نفسه». أمَّنَت ماري على كلامِ ديكون. إنّ هذا ما كانتْ تفكّر به تماماً. كما فكَّرت فيما إذا كان سيحفظُ السرَّ إذا ما أتَيا به إلى هنا. «لقد نَصَحَهُ الطّبيبُ بالهواءِ الطّلق.. وسيكون سعيداً بالخروجِ معنا».

رحَّب ديكون بالفِكْرة وقالَ إنَّ الطّبيعةَ خيرُ دواءٍ له.. «لا بدّ أنْ نأتي به إلى هنا ذاتَ يوم».

وراحا يُتابعان طائرَ الحنّاء وهو يَبْني عُشّه من جديد.. وكيف ينقلُ الأغصانَ بمنقارِه. صَفَر ديكون صَفْرَته المعتادة الّتي يخاطبُ بها الطّيور فالتفت «أبو الحنّ» نحوهما. وأخذ ديكون يكلّمُه كأنّه يتحدّث إلى طفلٍ مثله. ابتهجت ماري وهي تسمعُه يحكي بلغةِ الطّيور مثلَ ما يفعل البستانيُّ بن. وشعرتْ ماري أن الطائر يفهمُ ما يقولُه ديكون وأنّهما صارا صديقين.

قالتْ ماري: لَنْ أَفعلَ!

عادتْ ماري متأخِّرةً إلى البيت. وكانتْ في عجلةٍ من أمرها لأنّها تريدُ أن تعودَ بعد الظّهر إلى الحديقةِ ثانيةً، حيثُ ديكون بانتظارِها. لم يكنْ لدى ماري وقتٌ لرؤيةِ كولين، لذا فقد أوصتْ مارتا أن تُخبرَه بأنّها لا تستطيعُ رؤيتَه هذا اليوم.

كانتْ ماري بعد ظهر ذلك اليوم أكثرَ انهماكًا واستمتاعًا في الحديقة. فقد جرى قلعُ جميعِ الأعشابِ الغريبة وتقليمُ معظم الأشجار وشجيراتِ الوردِ، وتجريفُ ما حولها. وأحضرَ ديكون رَفْشَه معه كي يعملا معًا بهمّةٍ ونشاط بحيثُ تستعيد الحديقةُ شيئًا مِن رونقها قبل أنْ ينصرمَ الرّبيع. وقال ديكون إنَّ أشجارَ التّفاح والكرز وكذلك أشجارُ الكمّثرى والخوخ سوف تُزْهِرُ قريبًا، وسيتحوّلُ العُشبُ إلى بساطٍ من سُنْدُس.

لاحظ ديكون أنَّ ماري تستخدمُ الرّفش في حفرِ التّربة وتجريفِها بقوةٍ فامتدحَ همّتها ونشاطَها وقالَ لها إنّها باتت أصلبَ عودًا مِنْ ذي قبل.

افترقا عند المغيب والشمس ترسلُ أشعّتها الذهبيّةَ فوقَ الأشجارِ وتواعدا على اللّقاء في الصباحِ الباكرِ لليوم التّالي.

أسرعتْ ماري إلى المنزل تَعُدُّ الخُطى. كانتْ تريدُ أن تُخبر كولين عنْ ثعلبِ ديكون الصّغير وطائره، وعن لمسات الرَّبيع السحريّة في الحديقة. وما إنْ فتحتْ بابَ غرفتِها حتى وجدتْ مارتا بانتظارها مُمْتَقِعَةَ الوجه. سارعتْ مارتا إلى القولِ إنّ كولين قد انتابته ثورةُ غضبٍ جديدة. كان شديدَ القلقِ وكانَ وجودُ ماري إلى جانبه ضروريًّا.

كزَّت ماري على شَفَتيها، فهي لم تعتدْ مداراةَ أحد ولم ترغبْ في أن يتدخَّل أحدٌ في شئونِها. كما لم تكنْ تعرف شيئًا عن كيفيةِ التّعاملِ مع المرضى والعُصابيين. لقد فُطِرَت على الأنانية ولا تعرفُ كيف تهتمّ بالآخرين.

لم يكنْ كولين جالسًا على الأريكةِ عندما دخلتْ ماري غرفتَه. كانَ مضطجعًا في سريره ولم يحاولْ أنْ يرفع رأسَه ليُطلَّ عليها. اغتاظتْ ماري واقتربتْ منه قائلةً:

- «لماذا لم تنهضْ؟»

أجابها كولين دون أن ينظُرَ إليها :

- «لقد نهضتُ هذا الصّباح عندما ظننتُكِ آتيةً. ولكنني جعلتُهم يُعيدونني إلى الفراشِ بعد الظُّهر. كانَ ظهري يُؤلمني وراسى يُؤلمني. كنتُ مُرْهَقًا. لماذا لم تأتِ؟»

قالتْ له ماري إنّها كانت تعملُ في الحديقة مع ديكون. فردَّ

عليها كولين مُغْضَبًا بأنه لن يسمحَ لهذا الفتى بالْمَجِيءِ إذا كانتْ ستذهبُ إليه بَدلاً مِنْ أنْ تأتيَ إلى غرفتِهِ وتجلسَ معه.

استشاطتْ ماري غضبًا ولم تحاولْ أن تكتمَ غيظَها. وقالتْ لكولين مُحَذِّرةً:

- «إذا أبعدتَ ديكون فلن آتي إلى هذه الغرفة ثانيةً».

- «ستأتينَ إلى الغرفةِ عندما أريدُ ذلك».

- «لن أفعل».

- «ستفعلين. سوف يجرّونك».

أجابت ماري بشراسة: «أيفعلونَ ذلك أيُّها الأميرا قد يَجُرُّونَني إلى هنا ولكنّهم لا يستطيعون أنْ يُرغموني على الكلامِ. سأجلسُ دون أنْ أنبِسَ ببنتِ شَفة أو حتّى أنظرَ إليك..»

صاح كولين: «أنت أنانيّة!»

وردّت ماري: «وماذا أنت؟ الأنانيّون يقولون ذلك دومًا. الأنانيّ في نَظَرِهم مَنْ لا يفعلُ ما يريدون. أنت أكثر أنانية مني، بل أكثر ولد أنانيةً رأيتُه».

واحتدّ النّقاش بينهما حين تطرّق كولين إلى الحديثِ عن ديكون ووصفَه بالأنانية أيضًا. وانبرتْ ماري للدّفاع عنه بشدّة.

تعب كولين من النّقاش الُمحْتَدم. أدارَ رأسَه على الوسادةِ وأغْمَضَ عينيه. انسالت دمعةٌ حرّى على وجنتيه، وشعرَ بحزنٍ شديد.

لم تحاولْ ماري مواساته حين تحدّث عن مَرَضِه وعجزه، بل راحتْ تستفزّه قائلةً إنّه يحاولُ استدرارَ عطفِ الآخرين. بَلَغَ الغضبُ عند كولين ذِرْوَتَه وصاح يَطرُدُها من الغرفةِ وألقى بالوسادةِ عليها.

امتقعَ وجهُ ماري وقالتْ: «إنّني ذاهبةٌ ولن أعودَ». وخطَتْ نحو الباب، وعندما وصلتْ إليه استدارت وقالت له: «كنتُ أريدُ أن أُحَدِّثَك عن أشياءَ كثيرةٍ طريفة. لقد أحضرَ ديكون ثعلبَه الصّغير وطائرَه. والآن لَنْ أُحَدِّثك عن أيِّ شيءٍ!».

خرجتْ وأغلقت البابَ خلفَها، فوجدتْ أمامَها لدهشتها الممرِّضةَ المُدَرِّبة وكأنّها كانتْ تُصغي إليهما. وزادَ من دهشتها أنّها كانتْ تضحكُ. سألتها ماري: «ما الّذي يُضْحِكُكِ؟» قالت الممرّضة: «كنتُ أضحك عليكما أيها الصّغيران. إنَّ أفضلَ شيءٍ لذلك الطفل المدلّل هو أنْ يَلْقى من يُجابِهُه.. لو كان لديه أختٌ صغيرة شرسة مثله تتخاصَمُ معه لكانَ ذلك شفاءً له».

سألتها ماري: «هل هو على وشكِ الموت؟»

قالتْ الممرضة بلا مبالاة: «لا أعرف. إن ما يشكو منه هو الهستيريا وحدَّة الطّبع.. ستعرفين ذلك عندما تأتيه النوبة..»

عادتْ ماري إلى غرفتِها حانقةً خائبةَ الرّجاء. لقد غيّرت رأيَها في كولين. لنْ تخبره بسرٍّ الحديقة ولَنْ تأخذه إلى الهواء الطّلق. وقالتْ حانقةً تُحادِث نفسها: «ليبقَ في غرفته، أو ليَمُتْ إذا شاء».

كـانت مارتا بانتظارِها وعلى وجهها أمـاراتُ الاهـتمام والدهشـة. كانَ هنـاك صندوقٌ خشبيٌّ أنيقٌ بانتظارها على الطّاولة. قالت مارتا: «إنه مُرسلٌ إليكِ من السّيد كريفن، ويبدو أنّه يحتوي على كتبٍ وصور».

تذكّرت ماري كلماتِ السّيد كريفن قبلَ سفره. وراحتْ تفكُّ الرزمةَ وهي تفكّر فيما يمكن أنْ يرسل لها. كان الصّندوق يحتوي على عدّة كتبٍ جميلة كالتي عند كولين. اثنان منهما كانا عن الحدائقِ، وكان مزدانين بالرسوم. وهناك أيضًا قلمٌ ذهبيٌّ ومحبرةٌ وأشياءُ أخرى.

سُرّتْ ماري لهذه الهديّة التي لم تتوقّعها. وعزمتْ على أنْ يكون أولُ شيء تكتُبهُ بذلك القلم رسالةَ شكرٍ وامتنانٍ للسّيد كريفن. وقالتْ في نفسها: لو كنتُ على وفاقٍ مع كولين لأسرعتُ إليه لأُطْلعَه على ما جاءني من هدايا. ولكُنّا قرأنا معًا ولهونا معًا بالألعابِ. ولكان سلا ما يُفكّر فيه من هواجسَ وأوهام رَسَّختْها السّيدة ميدلوك في ذهنه. إنَّ ما ينتابُه من نوباتٍ هو نتيجةٌ لتلكَ الهواجسِ كما قال لها.

شعرتْ ماري بالحزن عليه. وتابعتْ تحدّث نفسَها: إنه لا يفكّر بي إلا عندما يكونُ متضايقًا أو تَعبًا. لقد كانَ كذلك اليوم. لعلّه كانَ يفكّر بي طوالَ فترةٍ ما بعد الظُّهر. ووقفتْ تفكّر حائرةً متردّدة. لقد قلتُ له إنّني لن أعودَ أبدًا. ولكنْ لعلّي أذهبُ صباحًا وأرى إذا كان يريدني. ربما يرميني بالوسادة ثانية.. أعتقدُ أنّني سأذهبُ إليه.

النوبة

أصاب ماري الكثيرُ من العَناءِ ذلك اليوم. فقد استيقظتْ صباحًا باكرًا وعَمِلَتْ في الحديقة بهمّةٍ ونشاطٍ. وعندما أحْضَرَتْ لها مارتا طعامَ العشاءِ التهمته بسرعةٍ وانْسَلَّتْ إلى فراشها. قالتْ تُخاطبُ نفسها وقد وضعتْ رأسها على الوسادةِ: سأذهبُ قبل الإفطار للعملِ مع ديكون في الحديقة، وبعد ذلك أحسبُ أنّني سأذهبُ لأراه.

ظَنَّتْ أنَّ الوقتَ منتصفُ الليل عندما استيقظتْ من نومها على أصوات مُرْعبةٍ جَعَلَتْها تقفزُ من فِراشها. كانتْ هناك أصواتُ أبوابٍ تُفتحُ وتُغلقُ وخطواتٍ مسرعةٍ في الممرّات.. وصوتٌ يبكي ويصرخُ بصورةٍ تدعو للهلع.

عرفت ماري أنّه صراخ كولين. إنّها إحدى نوباته الهستيرية. وكانَ الخدمُ يَغْدون ويروحون لا يعرفون من شدَّة الخوفِ كيف يتصرّفون. وحارتْ ماري بدورها ماذا تفعلُ. وفكَّرتْ بالذّهاب إليه ولكنها خَشِيَتْ أنْ تزيد رؤيتُها وضعَه سوءًا. كانت الأصواتُ حادَّةً إلى درجةٍ تَصُمُّ الآذان. وشعرتْ ماري بالقلق والرّعبِ وقالتْ في نفسها: «لا بدّ أن يوقفه أحد، أو يضْرِبَه أحد حتى يسكت!».

وفجأة فُتِحَ باب غُرفتِها ودخلتْ ممرّضة كولين مُمتقعةَ اللون. قالت مُضْطَربةً: «لقد جاءَتْهُ نوبةُ هستيريا ثانيةً. سَيُؤذي نَفْسَه، ولا أحدَ يستطيعُ أنْ يفعلَ به شيئًا. تعالي وجرّبي.. إنه يُحبُّك».

تردّدت ماري قليلاً لأنّه طردها ذلك الصّباح. ولكنَّ الممرضة ألحَّت عليها أن تفعل شيئًا بسرعة. هُرعت ماري إلى غرفته وقد أفْقَدَتها أصواتُ صراخِه المزعجةُ أعصابَها. فتحتْ بابَ الغرفةِ بقوّةٍ وصرختْ في وجهه: «توقّف يا هذا! توقّف. أنا أكرهك! الجميعُ يكرهونك. أتمنّى أنْ يذهبَ الجميعُ من البيتِ ويَدعوكَ تَصْرخ».

ما كانَ لطفلةٍ عطوفةٍ أن تقولَ مثلَ هذا الكلامِ. ولكنَّ صدمةَ سماعِهِ كانت الشيءَ الوحيدَ الممكنَ لردعِ ذلك الصبي الفاجر الّذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يُجابِهَهُ.

التفت كولين إليها بسرعةٍ وقد سَمِع صوتَها الغاضب. كان وجْهُهُ مُرعبًا شاحبًا متورّمًا. وكان يلهثُ ويشهقُ. لم تأبْه ماري له وقالتْ بغضب: «إذا صرختَ ثانيةً فأصرخُ بصوتٍ أعلى منك وأُخيفُك!».

توقّف كولين عن الصراخِ مذهولاً. لقد صَدَمَهُ كلامُها، وراحَ يرتعشُ والدّموعُ تنهمرُ على وجنتيه.

قال وهو يشهقُ ويتنهّدُ: «لا أستطيعُ أنْ أتوقّف.. لا أستطيع..» صاحتْ ماري: «بل تستطيع، فنصفُ أوجاعِك ناجمةٌ عن الهستيريا وحدّة الطبع». وراحتْ تكرّر كلمةَ الهستيريا وهي تدقّ الأرض بقدمها.

- «لقد شعرتُ بورم. سيكون عندي حدبةٌ في ظهري ثم أموت».

قالتْ ماري تعارِضُه بشدَّة: «أنتَ لم تشعرْ بورمٍ. إذا كان ثمةَ ورم فهو ورمٌ هستيري. لا شيء في ظهرك البشِع . استدرْ ودعني أنظر».

وصاحت ماري في الممرِّضة وأمَرتْها أنْ تُريها ظهرَه في الحال.

كانت الممرِّضة والسّيدة ميدلوك ومارتا واقفات عند الباب يُحَمْلِقْنَ فيها وقد فَغَرْنَ أفواهَهن، وهنَّ يَرْتَعِشْنَ خوفًا. اقتربت الممرّضة منه وقالت خائفةً بصوتٍ خفيض لماري إنّه قد لا يسمحُ لها بذلك. انصاع الصّبي وهو ينتحب.

كانَ ظهرُه نحيلاً ضعيفًا تكادُ تُعَدُّ أضلاعُه. وراحتْ ماري تتفقّد ظهرَه وكأنّها طبيبٌ مُتَمرِّس. وخَيَّمت لحظةُ صَمْت. وقالت ماري أخيرًا: «لا يوجدُ أيُّ ورمٍ في ظهرك! هناك انحناءٌ في عمودِك الفقريِّ فحسب. لقد كانَ عندي انحناءٌ مثلك في عمودي الفقري، وكانَ يُؤْلِمُنى كما يؤلمك... إلى أن اكتسبتُ صحّةً وزادَ وزني. لا يوجدُ عندكَ أيُّ ورم، وإذا قلتَ ذلك ثانيةً فسأضحكُ عليك!».

لم يُدْرِكْ أحدٌ مثلَ كولين مدي تأثيرِ تلك الكلمات عليه. لو كانَ حولَه مَنْ يستطيعُ أن يبوحَ له بمخاوفِه، ولو كانَ لا يضطجعُ كلَّ الوقت على ظهرِهِ في تلك الغرفة المقفلة، يحيطُ به مجموعةٌ من الجهلة يتبرّمون به، لكان اكتشف أنَّ معظم مخاوفِهِ وأوجاعِهِ قد أوجدَها هو بنفسه.

استلقى كولين على ظهره فيما الدّموعُ لا تزال تنهمرُ من عينيه. كانت الدّموعُ تعبيراً عن مقدارٍ كبيرٍ من الرّاحة. التفتَ إلى الممرّضة وسألها برقّةٍ على غير عادتِه وقال:

«هل تظنّين أنّني أستطيعُ أن أعيشَ وأكْبُر؟»

ردّت الممرّضةُ بكلماتٍ سَمِعتْها من الطّبيب:

«لعلّك ستعيشُ إذا فعلتَ ما يُقالُ لك، ولم تستسلمْ لحدّة الطّبع، وإذا خرجتَ من الغرفة وأمضيتَ وقتًا طويلاً في الهواء الطّلق».

مرّت نوبةُ كولين على خير، ولكنه كان ضعيفًا مُنْهكًا من شدّةِ الصُّراخ والنَّحيبِ. مدَّ يده إلى ماري وفي عينيه نظرةٌ رقيقةٌ، فمَدَّت ماري يدَها إليه. كانَ ذلك تعبيراً عن المصالحةِ بينهما.

وعبَّر كولين عن رَغْبَةٍ في الخروج معها إلى الهواء الطّلقِ. وقال إنّه سيكون سعيداً بالخروج معها إذا جاء ديكون وجرَّ له كرسيَّه.

انشرحَ الجميع لتجاوز كولين النّوبةَ. وانسلَّت السّيدة ميدلوك ومارتا من الغرفةِ. وتَبِعتْهما الممرّضةُ بعدَ أنْ رَتَّبتْ سريرَه.

قالتْ له ماري: «هل أُغنّي لك تلك الأُغنية الّتي تعلّمتُها من آيا؟» نَظَر إليها كولين بودٍّ ولهفةٍ وهو يجرُّها من يديها وقال: «أجلْ! إنَّها أغنيةٌ رقيقةٌ سَتَجْعلني أغفو في دقائق».

سألَها كولين وقد أخَذَ منه النّعاسُ كلَّ مأخذ ما إذا كانتْ قَدِ اكتشفتْ أيَّ شيءٍ عن الطّريقِ إلى الحديقة السريّة. قالتْ ماري وقَدْ أنهكَها الإعياءُ بدورها: «أجلْ. وإذا نمتَ الآن فسأحدّثك عنها غداً». قال كولين بلهفةٍ وأملٍ: «أوه يا ماري. لو استطعتُ الدّخولَ إليها فسأكْبُر وأعيش! هل لَكِ أنْ تحدّثيني عنها بصوتك الرقيق بدلاً من أغنية آيا؟» وافقتْ ماري. وقالت له: «أغمضْ عينيكَ». وراحتْ تحدّثُه بصوتٍ بطيءٍ وخفيضٍ عَنْ جمالِ الحديقة بأوراقها وأشجارِها وورودِها وطيورِها.. ولم يلبثْ كولين أنْ غطَّ في نومٍ عميق.

ينبغي ألا نُضيع وقتا

لم تستطعْ ماري بالطّبع أنْ تستيقظَ باكرًا في اليوم التّالي. وعندما جاءتْ إليها مارتا حاملةً طعام الإفطارِ أَعْلَمَتْهَا أنَّ كولين هادئٌ تمامًا ولكنّه مريضٌ يشكو الحُمّى كعادته. ونقلتْ إليها مارتا رغبةَ كولين في أنْ يراها، ورَجَتْهَا، بعد أنْ أَثْنَتْ على طريقةِ تصرُّفها في الليلة الفائتة، أنْ تذهبَ إليه.

عَزَمت ماري على أنْ ترى كولين أولاً ثمَّ تذهب للقاءِ ديكون في الحديقة. وعندما دخلتْ غرفةَ كولين وَجَدَتْه مُتعبًا طريحَ الفراش. كان وجهُهُ شاحبًا وعيناه غائرتَينِ، ولكنّه كان سعيدًا لمجيئها. سألها كولين بقلقٍ ما إذا كانتْ تتأهَّب للذهاب إلى مكانٍ ما. طمأنْته ماري أنّها لَنْ تتأخَّرَ، فهي ذاهبةٌ للقاءِ ديكون لأمرٍ يتعلّقُ بالحديقة.

أشْرَق وجهُ كولين عند سماع تلكَ الكلمات، وصاح قائلاً:

«الحديقة! لقد كنتُ أحْلُم بها طوالَ الليل.. بأشجارِها وأوراقِها الخضراءِ وطيورِها. سأبقى راقدًا في فراشي حتى تعودي إليّ».

ما هي إلا دقائقُ قليلةٌ حتّى كانت ماري مع ديكون في حديقتِهما. كان مبتهجًا وهو يُخْبِرها أنه جاء هذه المرّة على مُهْر

ومعه أيضًا سنجابان صغيران أليفان. دعاهما ديكون باسميهما: «نَتْ» و«شل» فإذا بهما يتسلّقان على كتفيه.

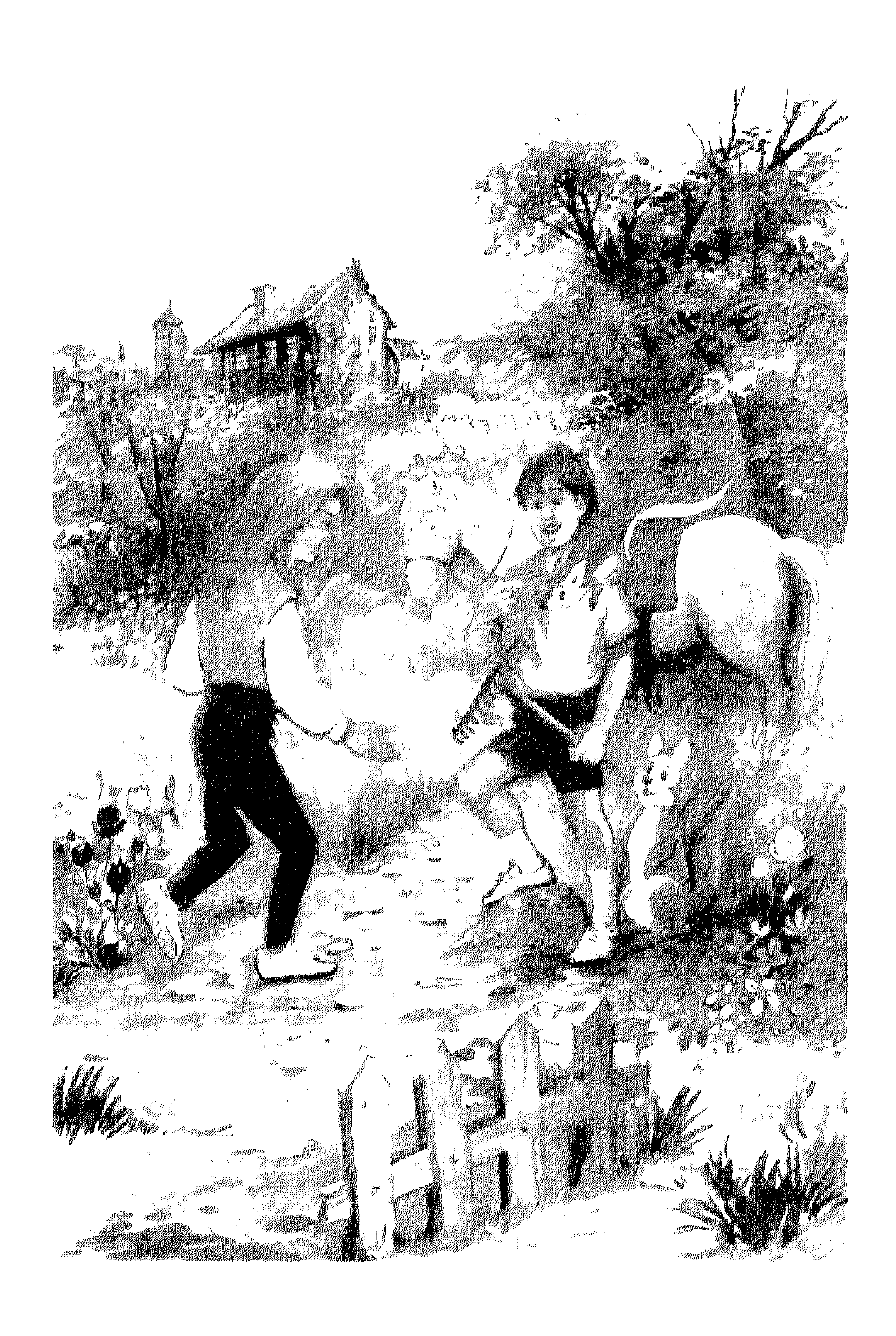
حَكَتْ له ماري حكايتَها مع كولين وما حَدَثَ له بالأمس. شَعرَ ديكون بالأسى. قال وهو يتلفَّتُ حولَهُ حيثُ الطّيور تُزَقزق، وروائح الرّبيع العَطِرة تفوح: «لا بدّ أنْ نأتيَ بذلك الصَّبي المسكين إلى هنا حتّى يتمتَّعَ بجمال الطّبيعة، ويُصغي إلى زقزقةِ طيورها ويتعرّض لأشعةِ الشّمس الدّافئة. يَنْبغي ألا نُضيعَ وقتًا».

كانتْ ماري بدورِها متحمّسةً للفكرةِ وقدْ شجَّعتْها كلماتُ ديكون على المُضِيِّ قُدُمًا.

كانتِ الحديقةُ تزداد رونقًا وجمالاً يومًا بعد يوم. وكان يَعِزُّ على ماري أن تفارقَها. ولكنّها عادتْ إلى البيتِ للقاء كولين. قال لها الأخيرُ عندما اقتربتْ من سريرِه بحبور: «إنَّ روائحَ الأزهار تفوحُ منكِ!» وازداد سرورُ كولين عندما سَمِعَ ماري تتحدّث عن الطّبيعة الغنّاء والرّبيع الطَّلْق بلهجةِ يوركشاير.

وراحا يَتَضَاحكان بسعادة. كان كولين يحبُّ أنْ يَسْمَعَ المزيدَ عن ديكون وطيوره وحيواناته، وعن مُهْرِهِ «جامب» الّذي يفهمُ ما يريدُه ديكون. وكانتْ ماري تُسْهِبُ في الحديث عنه، وتتمنّى أن يُصبحا صديقين.

أطْرَقَ كولين قليلاً وراحَ يفكّرُ. ثم قال يخاطب ماري إنّه يتمنّى



أن يصادق أحداً. ولكنّه يخشى ذلك لأنه لم يصادقْ أبداً أيَّ إنسان. وشرحتْ له ماري أنّها كانتْ ذاتَ طبيعةٍ مماثلةٍ لطبيعته وأنّها كانتْ تكره النّاسَ. ولكنَّ هذه الطَّبيعة تغيَّرت تمامًا بعد أنْ تعرَّفت على ديكون وطائر الحنّاء. قال كولين وهو يلمسُها بيده الرقيقة إنَّه يَأسف لِما قاله عن ديكون، وإنّه شعر بالغيرةِ عندما قالت إنّه كالملاك. ولكنّه الآن يشعرُ أنّه رُبما يكون كذلك. قالتْ ماري إنّه لو لم يكنْ كالملاك لَـمَا أحبّته الطّيور والحيوانات البرّية والأزهار.

عبَّر كولين عن رغبتِه بالتّعرف بديكون. وشعرتْ ماري أنَّ الوقتَ قد حان لتُخْبِرَه. نهضتْ ماري من مَقْعَدِها واقتربتْ منه وأمسكتْ بكلتا يديه بقوّةٍ، وقالتْ:

«هل أستطيعُ أنْ أَثِقَ بك؟ لقد وثقتُ بديكون لأنَّ الطّيور تَثِقُ به. هل أستطيع أن أثقَ بك يقينًا؟ يقينًا؟».

أجابها كولين بصوتٍ هامسٍ: «أجل.. أجل!»

- «حسنًا سيأتي ديكون لرؤيتك غداً صباحًا، مُصْطحبًا معه مخلوقاتِه العجيبة». وتابعتْ ماري تقولُ بحماسة: «.. هناك بابٌ يُفضي إلى الحديقة. لقد وجدتُه».

سُرَّ كولين لما سَمِعَ أيّما سرور وتساءَل بدهشةٍ: «هل أستطيعُ يا ماري أن أدْخُلَها؟ وهل أعيش حتى أراها؟» قالتْ له ماري بفخرٍ إنَّه يستطيع بالطّبع أنْ يدخلها وإنه سَيَعيش بالتّأكيد ويراها.

نَسِيَ كولين صداعَه وآلامَه وهو يُصغي إلى ماري تحدّثُه عن الحديقة. وقال: «إنَّ الحديقةَ تبدو تمامًا كما تخيَّلتِها. إنّها تبدو وكأنَّكِ قَدْ شاهدْتِها بالفعل».

عندئذ تجرَّأتْ ماري وقالتْ له الحقيقةَ. وقالتْ إنّها لم تخبرْه عن ذلك من قبل لأنّها لم تكنْ واثقةً بعدُ منه كلَّ الثّقة.

لقد حلّ الرّبيع

كان من الطبيعيّ أن يُستدعى الدّكتور كريفن في صبيحة اليوم الّذي تلا النّوبة الّتي أصابتْ كولين، وكانَ يَسْتَثْقِلُ مِثْلَ هذه الزّياراتِ. لم يصل الطّبيبُ هذه المرة إلا متأخّرًا. وعندما وَصَلَ بعد الظُّهر سألَ السّيدة ميدلوك بتأفُّفٍ عن صحّة الصّبي. قالتْ له السّيدة ميدلوك: «ربّما لا تُصدِّقُ عينيك يا سيّدي عندما تراه. إنّه لم يعدْ ذلك الصبي الشاحب المشاكس دومًا. لا أحد يدري ماذا فعلتْ به.. لقد فعلت ما لا يجرؤ أحدٌ على فعله. لقد استطاعتْ أنْ تجابهَه وتوقِفَ صُراخَه. تعالَ وانظرْ يا سيِّدي. إنّه شيءٌ لا يُصَدَّق».

ذُهِلَ الدّكتور حقًّا عندما دخَلَ الغرفة. كانَ كولين جالسًا على الأريكةِ يتحدّث ويضحك ويقلّب صفحاتِ كتابٍ عن الحدائق وصورَه، وإلى جانبه ماري فرحة مستبشرةً أيضًا، تُجَاذِبُهُ أطرافَ الحديثِ حول بعضِ أنواعِ الأزهار والنباتات.

سكتتْ ماري عندما رأَتِ الدّكتور كريفن، أمّا كولين فقد نظَرَ إليه بضيق.

قالَ الطّبيب بعصبيّةٍ: «آسفٌ لِما سمعْتُه عن مرضِكَ ليلةَ أمس

ياولدي». أجابه كولين بلهجةِ أمير: «أنا أحسن الآن. سأخرجُ على كرسيٍّ خلالَ يومٍ أو يومين فأنا بحاجةٍ إلى الهواء الطّلق».

جَلَسَ الدّكتور كريفن إلى جانبِه وقاسَ له نَبْضَهُ ثمَّ نَظَرَ باستغراب وقال: «إنَّ الطقسَ رائعٌ اليوم. ولكنْ حاذرْ أنْ تُجهد نفسَك».

لاحظ كولين استغرابَ الطّبيبِ، وقال له إنّه سيخرجُ مع ابنةِ عمِّه. ورَفَضَ كولين بشموخ أنْ يصطحب الممرّضةَ معه كما اقترحَ الطّبيبُ، قائلاً إنَّ ابنةَ عمِّه تعرفُ كيف تُعْنى به جيداً. وهناك ولدٌ قويٌّ أعرفه سوفَ يدفع عربتي.

شَعَرَ الدكتور كريفن بالخطر. فتحسُّن صحّةِ هذا الولد المُتْعِب والهستيرى تعني أنْ يخسَرَ هو فرصةَ وراثةِ «ميسيل ثويت». وأرادَ الطبيبُ أن يعرف شيئًا عن ذلكَ الولد القوي. انفرجتْ أساريرُ الطّبيب عندما عَرَفَ أنّه ديكون. وقال لكولين إنّه سيكون في أمانٍ معه، فهو قويٌّ كمهرٍ مِنْ مهور البراري.

وسألَ الطّبيبُ كولين ما إذا كانَ قد أخذَ دواءَه، فنفى الغلام ذلك لأنَّ ماري جعلتْه ينامُ بهدوءٍ دون حاجةٍ إلى دواء. وعندما حاول الطّبيب أنْ يذكِّره ثانيةً بضرورةِ تناولِ الدّواء اعترضَ كولين بحدّة، فالطّبيب الحقُّ هو من يجعلُ مريضَه ينسى مرضَه لا من يُذكِّرُه به. إنَّ ابنةَ عمه تُشْعِره بالتّحسُّن لأنها تُنسيه مرضَه.

خَرَجَ الطّبيب مُسْرِعًا على غيرِ عادتِه بعد كلِّ نوبة. لَمْ يصفْ

دواءً ولَمْ يُعطِ تعليماتٍ. واعترفَ للسّيدة ميدلوك بعد خروجِه، حائرًا، بوجودِ وضعٍ جديد.

نامَ كولين تِلْكَ الليلة نومًا هانئًا. وعندما فَتَحَ عينيه في الصّباحِ كان يشعر براحةٍ نفسيّةٍ عجيبة. كانَ ذِهْنُهُ متيقّظًا يتطّلعُ إلى تحقيقِ ما اتّفق عليه مع ماري من خططٍ بالأمسِ. وما إنْ نهضَ من فراشِه حتّى كانتْ ماري تدخُل غرفته، وتدخل معها نسائمُ الصّباحِ المنعشة.

قالَ لها كولين: «لقد كنتِ في الخارج بالتّأكيد.. فأنتِ تحملين معك روائحَ أوراقِ الشّجر!» قالتْ ماري لاهثةً: «لقد حلَّ الرّبيع.. الرّبيع! ما أجمله!»

خَفَقَ قلبُ كولين وقالَ فَرِحًا: «افتحي النافذة».

فتحتْ ماري النّافذة وقالتْ لكولين: «املأْ رئتيكَ من هذا الهواء المنعش، كما يفعل ديكون في البرّية. إنّه يبعث فيك الهمّة والنّشاط ويمنحُك الشّعور بأنّك ستعيش أبدًا».

انتعَشَ كولين وهو يستنشقُ الهواء العليل بقوّةٍ وشَعَرَ بالحيوية تَدِبُّ في أوصالِهِ.

راحتْ ماري تَصِفُ لكولين بكثيرٍ من البِشْر ما طَرَأَ على الحديقة من عناصرِ الرّوعة والجمال والنّضارة مع إطلالة الرّبيع.

دخلت الممرّضة فطلب إليها كولين إحضارَ الإفطارِ لأنّه يريد أن يتناولَ إفطارَه مع ابنةِ عمّه.

أشاعَ تحسُّن صحة كولين وتحسُّن طباعِه جوًّا من الارتياحِ بينَ خدمِ المنزل، وراحوا يتساءلون بدهشةٍ عن سرٍّ تلك الفتاة التي استطاعتْ ترويضَه.

ما كادَ كولين يجلسُ ليتناول طعام إفطارِه مع ماري حتّى طلبَ الممرّضة وطلب إليها بلهجةٍ آمرةٍ أن تُخْبر مارتا أنّ صبيًّا اسمه ديكون، وهو شقيقُ مارتا، سيزورُه الآن مصطحبًا معه ثعلبًا وطائرًا وسنجابين وحَمَلاً صغيرًا. وطلب إليها أن تُدْخلهم جميعًا غرفته.

قالت الممرِّضة الّتي لم تستطعْ أن تُخفيَ دهشتَها: «أمْرُك يا سيّدي!»

لاحظتْ ماري أنَّ كولين يتناولُ طعامَ إفطارِه بشهيّةٍ. وقالتْ له إنّه سيكتسبُ صحّةً وهِمَّةً قريبًا كما جرى لها.

ما كادَ كولين يسألُها عن موعدِ وصولِ ديكون حتّى بدأتْ أصواتُ حيواناتِه تتعالى. هرِعَت ماري لتفتحَ لَهُ البابَ وقد سمعتْ صوتَ اقترابِ خُطُواتِه، وقالتْ: «لو سمحتَ يا سيّدي.. ها هو ديكون وحَيَواناتُهُ».

دخلَ ديكون بابتسامتِه المشرقة على وجهِه. كان الحَمَلُ الصغير بينَ يديه والثّعلبُ الأحمر يَخْطُر إلى جانبِه، ووقفَ السنجابان على كَتِفَيه، ثُمَّ مدَّ الطائرُ رأسَه من جيبِ معْطَفِه.

راحَ كولين يحدِّقُ فيما يرى بدهشةٍ وحبورٍ. إنّه يرى ديكون

الّذي سَمِعَ عنه وعن حيواناتِهِ العجيبة أمامَ عينيه. وغَمَرَهُ شعورٌ بالاستغرابِ حتّى إنَّه لَمْ يعرف ماذا يقول.

لم يشعرْ ديكون بأيٍّ خجلٍ أو حَرَجٍ، بلِ اقتربَ من كولين ووضعَ الحَمَلَ الصّغيرَ بين يديه، وراح الحَمَلُ يحكّ أنفه بثوبِ كولين المنزليِّ. تساءَل كولين بدهشة :

« ماذا يفعلُ؟ ماذا يريد ؟ »

قال ديكون متبسمًا : « إنّه يريدُ أمَّه. لقدْ أحضرتُه إليك جائعًا قليلاً لأنّني أعرفُ أنَّ ماري تحبُّ أنْ تراه وهو يأكل » .

قَرْفَصَ ديكون عند الأريكةِ وأخرجَ زجاجَ الحليبِ من جيبِهِ. ودَفَعَ بِحلَمَةِ الزّجاجةِ في فمِ الحَمَلِ الّذي راحَ يَرْضَعُ بشهيّة.

وقصَّ عليه ديكون كيفَ وجد هذا الحَمَل المسكين الّذي أضاعَ أمَّه. وكيف راح يبحثُ عنها إلى أن وجَدَها عند صخرةٍ في قمّةِ هضبةٍ وقد نَفَقَتْ من البرد.

وراحَ الصّبيّان يقلّبان معًا صورَ كتبِ الأزهارِ والحدائقِ. وكان ديكون يشرحُ لكولين خصائصَ الأزهار البرّية وكيفَ تُزْهر، وتَكبُر.

صاحَ كولين: « أريدُ أن أذهبَ لرؤيتها. أريدُ أن أذهبَ لرؤيتها » . قالت ماري بجديّة: « هيّا.. ينبغي ألا نُضيعَ وقتًا » .

سأعيشُ إلى الأبَد

تأخّرتْ رحلتهُم إلى البرّية أكثرَ من أسبوع بسببِ البرد الشّديد أولاً وإصابةِ كولين بالبرد ثانيًا. ولكنَّ ديكون كان يتردّد عليهما باستمرارٍ يُخبرهما عن كلِّ جديدٍ من مشاهداته في البرّية.

وكانَ على الثلاثة أن يفكّروا في الترتيباتِ الّتي ينبغي اتخاذُها لنقلِ كولينَ في سرّيّةٍ تامّةٍ إلى الحديقةِ، إذْ لا ينبغي أنْ يراهم أحدٌ وهُمْ يقتربون من مدخلِها المغطّى وراءَ شجرةِ اللّبلاب، أو حتى يَشُكَّ في أمرِهم. وكانوا يرغبون في أن تبدو الأمور طبيعيّة وكأنّهم يتنزّهون معًا حولَ المنزل.

تسرّبتْ إشاعاتٌ عن الأشياءِ الجديدةِ والغريبةِ الّتي كانتْ تَحْدُثُ في جناحِ كولين عَبْرَ الخدم إلى الإسطبلِ وإلى العاملين فى الحدائق. وكانتْ دهشةُ السّيد روش، كبير البُستانيّين، كبيرة عندما تلقّى فجأةً أمرًا بضرورةِ حضورهِ إلى جناحِ السّيد كولين لأنّه يريدُ أنْ يتحدّث إليه. لم يكن السّيد روش قد رأى كولين أبدًا. كان يتناهى إلى سمعه بعض المبالغات عنه، ولكنّه لم يكنْ يعرفُه. ولم يُخْفِ دهشتَه أمامَ السّيدة ميدلوك وهي تقودُه إلى غرفةِ كولين. قالتْ له السّيدة ميدلوك: «إنّ الأمور تتغيرُ في هذا البيت. ولا تندهشْ إذا وجدتَ نفسَكَ وسط معرضٍ للوحوش». ورغم هذا التّحذير فإنّه لم

يتمالكْ نفسَه من أنْ يقفز فَزِعًا عندما رأى طائرَ ديكون يستقبلُه بالصّياح عند الباب.

قال كولين بعد أنْ قدّمت السّيدة ميدلوك السّيد روش إليه: «هل أنتَ السّيد روش؟ لقد أرسلتُ في طلبك لأعطيكَ بعض الأوامر». قال السّيد روش مُنْدهشًا: «حسنًا يا سيدي». قال كولين إنّه سيغادرُ الغرفة على كرسيِّه بعد ظهرِ ذلك اليوم. وإذا ما ناسبه الهواءُ الطّلق فإنّه سيخرجُ كلَّ يوم. وتابعَ يقولُ إنّه لا يريدُ أحداً من البُستانيّين عند «الممرّ الطويل» على طولِ جدران الحدائق. وعليهم أنْ يَبْقَوا بعيداً حتّى يسمح لهم بالعودةِ إلى أعمالهم. وما إنْ فَرَغَ من كلامه حتى أعطى السّيد روش إشارةَ السّماح له بالانصرافِ على طريقةِ الأمراء الهنود.

خرجَ السّيد روش وهو يُبْدي دهشتَه أمامَ السّيدة ميدلوك من سلوكِ كولين «الملكي» وقال إنّه يتحدّث كأميرٍ ينتمي إلى بلاطٍ ملكي.

قال كولين يخاطبُ ماري وديكون: «كلٌّ شيءٍ آمنٌ الآن! سأراها بعدَ ظهرِ هذا اليوم! سأدخُلها!».

خرجَ ديكون مع حيواناته إلى الحديقةِ، فيما بقيتْ ماري مع كولين. شعرتْ ماري أنَّ ثَمَّةَ شيئًا يَشغلُ بالَ كولين. سألته ما به، فقال إنّه يفكّرُ بالرّبيع. إنّه لا يعرف ما هو الرّبيع، ولم يرَ أبداً مظاهرَه. وقد شعرَ بالغرابةِ ذلك الصّباح عندما هلّلَت قائلة: «لقد جاء الرّبيع!» وقال: «لقد خُيِّلَ إليّ أنّه أشبهُ بموكبٍ عظيمٍ تَصْحَبه موسيقى صاخبة».

قـالـتْ مـاري: «إنّه حـقًّـا كـمـا تـخـيّلت. فـفـيـه تـرقصُ الأزهارُ والأطيـارُ، والأوراقُ والخُضـرة، والمخلوقاتُ البـريّة، وتغني. يا لهـا من صورةٍ بهيجةٍ للرّبيع!»

هيّأت الممرّضة كولين للخروجِ بكرسيّه المتحرّك. وكـانتْ سعيدةً لانْشِراحِـهِ ومعنوياتِه العـاليـة. حَمَله الخـادم مع كـرسيّـه إلى مـدخلِ البيت، حيثُ كان ديكون بانتظارِه.

أخـذَ ديكـون يَجُـرُّ الكرسيَّ ذا العـجـلات، وسـارتْ مـاري إلى جانبه. رفع كولين بصرَه إلى السّماء فبدتْ له الغيوم الثلجيّة الضئيلة مثلَ طيورٍ بيضاءَ تطفو فوق أجنحةٍ على امتدادِ الزرْقة الصـافيـة. تساءَل كولـين وهو يتنشّق نسائمَ عَبَق البرّية عن سرِّ ذلك العبق الذي ينتـشـرُ في الجـوّ. أجـابه ديكون بأنـه رائحـةُ نبـاتِ الجَـولَق[1] الّذى يعشقُه النحل.

تابعَ الـثلاثة طريقَهـم المرسوم دون أنْ يراهم أحدٌ، إلى أنْ وصلوا إلى البـوّابة المخفـيّة لتـلك الحديقـة السرّية. وتولتْ مـاري شـرحَ كلِّ شيءٍ. كـانت دهشـة كـولين بالغـة من كلِّ مـا يسـمـع ويري، ويطرحُ أسئلةً كثيرة محاولاً أنْ يعرف كلَّ شيء. كان يتطلّع حولَه مسحوراً. يتأمّل كلَّ ما حوله: الأشجارَ والأرضَ والأسوارَ والعشب.. ويتلفّتُ هنا وهناك وكأنّه فى عالمٍ آخر.. يُشْبه الفردوس. وكانَ يشعرُ بنشوةٍ داخليّة عـميقـةٍ جعلته يصيحُ بأعلى صوته: «سأتحسَّن.. سأكونُ على خيرِ ما يرام. ماري وديكون! اشهدا انّني سأعيشُ إلى الأبد!».

(١) نبات برى شائك دائم الخضرة ذو ازهار صفراء.

البستانيّ بن ويذرْستاف

بدا العالمُ كلُّه لكولين بعدَ ظهر ذلكَ اليوم وكأنّه خُلِقَ ليكون كاملاً وبهيجًا ولطيفًا بالنّسبةِ إليه. وجاءَ الرّبيع ليُضفي جمالاً على كلِّ شيء. قال كولين لرفيقيه: «إنني في الثانية عشرة من عمري ولم أشهدْ في حياتي مثلَ هذا اليوم الرّائع».

تابعَ الثّلاثةُ تَجْوالَهم ووقفوا تحتَ شجرةِ برقوقٍ بانتْ ككتلةٍ من الثّلجِ بأزهارها البيضاء الكثيفة، أو باب ملكي. وبقربها انتشرتْ شُجيراتُ الكرز والتّفاح المُزْهرة بألوانها القُرْمزيّة والبيضاء. وبين الفينة والفينة كان ديكون وماري يتوقّفان ليعملا معًا هنا وهناك، فيما يُتابِعُهُما كولين بنظره. ويُحضران له تارةً بعضَ البراعم المتفتِّحة أو الّتي لَمْ تتفتَّح بعد. ثم يطوفان به في أرجاءِ الحديقة ويتوقّفان عندَ كلِّ آيةٍ من آياتِ الجمال فيها كي يُمَتِّع كولين ناظريه. ومع حِرْصِهِم على الحديثِ هَمْسًا حِرْصًا على سرِّية وجودِهم في الحديقة إلا أنّهم ما كانوا يستطيعون أنْ يتمالكوا أنفسَهم أحيانًا فيُطْلِقون الضّحكاتِ أو صيحاتِ الإعجاب.

ازداد كولين سرورًا برؤيةِ طائرِ الحنّاءِ الّذي حدّثَتْه ماري عنه

طويلاً. وراح يُتابعه بإعجابٍ وهو يُرَفرف حاملاً الطعام بمنقاره وعائدًا إلى عُشِّه. وعبَّر كولين عن فَرَحِهِ الشديد بالرّغبة في المجيء إلى الحديقةِ كلَّ يومٍ. إنّه يريد أنْ يرى الحديقةَ في الرّبيع بل وفي كل الفصول.

تناولَ الأولاد الثلاثة طعامهم بشهيّة زائدة. وعادوا إلى متابعةِ جولتهم في الحديقة بعدَ الغداء. تَقَصَّد ديكون أنْ يستفيد من حماسةِ كولين لزيارةِ الحديقة باستمرار كي يشجّعَه على المشي، والعمل معهما في حفرِ التّربة. ولكنَّ الفِكْرة كانتْ مرعبةً بالنسبةِ إلى كولين الّذي لم يتعوّد على المشي لضعفٍ في ساقيه. ولكنَّ ديكون شَجَّعه على التخلّص من الخوفِ، وعلى أن يصمِّم على أنْ يفعل ذلك. راقت الفكرة لكولين وإنْ لم يُنَفِّذْها في الحال. وفيما هو يفكِّر فيما قاله ديكون رفعَ رأسَه إلى أعلى فلفتَ نظرَه وجودُ رجلٍ عجوزٍ يُطِلُّ برأسِه عليهم من وراءِ الجدار. تساءل كولين بدهشة: «مَنْ ذلك الرجل؟»

كانَ الرجل هو البستاني بن ويذرستاف. كانَ الرجلُ غاضبًا، وراح يُلَوِّحُ بقبضته موجِّهًا نظره نحو ماري. وأخذ يوبِّخُها بشدّة على دخولها الحديقةَ دون إذن. استغربَ كولين تصرفات ذلك الرجل الّذي كان يُقَرِّع ماري بطريقةٍ فظّة، وساءَه ما كان يوجِّهه إليها من ألفاظٍ نابية. وحاول كولين أن يُعَرِّفه بنفسه حتّى يجعلَه يتوقّف عن الصُّراخ، ولكنَّ العجوز استهانَ به ووصفَه بالأحدب. هنا استشاط

كولين غضبًا لوقاحةِ العجوز ولم يجدْ نفسَه إلا وهو ينتصبُ واقفًا على قدميهِ، ويقول للعجوز والشَّررُ يتطاير من عينيه: «ها أنذا أقِف! انظُر إليّ.. انظر إليّ!».

ذُهِلَ العجوزُ وراحت الدّموع تَنْهارُ من عينيه.

تابعَ كولين وهو لا يزال منتصبًا كالرُّمح، موجِّهًا كلامَه إلى العجوز: «أنا سيِّدُك في غيابِ والدي. وعليكَ أنْ تُطيعَني. هذه حديقتي. وإيّاكَ أنْ تقولَ كلمةً واحدةً عنها! انزلْ بسرعة وتعالَ إليَّ».

انصاعَ البستانيُّ العجوزُ، والدّموع لا تزال تترقرق في عينيه وقال: «أمْرُكَ يا سيّدي!».

عند الغروب

طلبَ كولين من ماري أن تستدعي البستانيَّ للقائه. كانَ يريد أن يُثْبِتَ له عمليًّا أنّه يستطيعُ المشيَ والوقوفَ بمفردِه على قدميه. قال كولين لديكون: «ها أنا أقِف». وكان ديكون سعيدًا بما يرى وأبدى كولين رغبةً بالسّيرِ نحوَ شجرةٍ على بُعْدِ عدّةِ أقدامٍ منه. ومشى إلى الشجرةِ بعزمٍ متّكئًا قليلاً على يدِ ديكون.

فَرِحَتْ ماري كثيرًا عندما رأتْهُ مُنْتَصِبًا عند جذعِ الشّجرةِ وقالت مُشجعةً: «إنّك تستطيعُ أن تفعلَ ذلك.. تستطيع!».

ما إنْ رأى كولين البُستانيَّ ويذرستاف حتّى قال بتحدٍّ وبصوتٍ آمر: «انظر إليّ.. هل أنا أحدب؟ هل ساقاي مُقَوَّستان؟».

نفى البستانيُّ أن يكون كذلك. وقالَ له بصوتٍ رقيقٍ إنّ احتجابَه في غرفةٍ هو ما جعل النّاسَ تُطْلِقُ الشائعات حوله. وتمنّى له العمرَ المديدَ، وطلبَ إليه برجاءٍ أنْ يجلِسَ ويأمُرَه بما يريد.

وحكى له البُستاني كيف أنَّ والدتَه كانتْ تُحبُّه لأنّه كان يعتني بهذه الحديقةِ. وقال لكولين: «إنَّ أمَّكَ كانتْ مُغرمةً بهذه الحديقة.. إنّها حديقتُها». وقالَ البستانيُّ أيضًا إنّه كان يأتي إلى هذه الحديقةِ سِرًّا بعد وفاتِها للعناية بها إكرامًا لذكراها. فقد أوصَتْه أنْ يعتني بأزهارِها وأشجارِها في حياتها ومماتها. ولم يكنْ يدخل الحديقةَ عن

طريق البـاب، بلْ كـانَ يتـسلّق الجـدار. ولكـنّه توقف عن المجيء إلى الحديقةِ بسببِ آلام الروماتيزم الّتي باتتْ تمنعه من تسلُّق الجدار.

ووعدَ البستانيُّ بأنْ يستمرَّ في العناية بالحديقةِ، وأنْ يحفظَ السِّرَّ كـعـهـده دومًـا. دُهِشَ الجـمـيعُ عندمـا رأَوا كـولين يتناولُ الرفشَ بحماسة، ويحرّكه بيديه الضّعيفتين محاولاً تسويةَ التّرابِ. وكان كولين سعيداً للغاية لأنّه استطاعَ أنْ يمشيَ وأنْ يحْفِرَ الأرضَ في يومٍ واحد. وقالَ مخاطبًا ديكون: «لقد كنتَ على حقٍّ عندما قلتَ إنّني أستطيعُ أنْ أفعل ذلك».

أرادَ البستانيُّ أنْ يُشجِّعه بدورِهِ، واقترحَ على كولين أنْ يزرعَ شَتْلَةً من الورود الّتي كانتْ أمُّهُ تُفَضِّلها. تَحَمَّسَ كولين لهذه الفكرة كثيراً، وحثَّ البستانيَّ على الإسراعِ بجلبها. واستطاعَ كولين بيديه المرتعشتين أنْ يزرعَها في الحوضِ المخصَّصِ لها، يُعاونه في ذلك ديكون وماري. كانَ الجميع يَعْمَلُونَ بسرعةٍ وحماسةٍ يُريدون أنْ يُنْجِزوا هذه المهمّة قبلَ غُروبِ الشّمس.

وكَمْ كانتْ فرحةُ كولين عظيمةً عندما تَمَّ إنجازُ هذه المهمّةِ الشّائقةِ قبل المغيبِ. كان كولين حريصًا على أنْ يودِّعَ الشّمسَ عند غيابها فقد شعر أنّها أمدّته بطاقةٍ عظيمة.

السِّحر

كـانَ الدكـتـور كـريفن ينتظرُ مُنْذُ بعض الوقت عـندمـا عـادا إلى البيت. وما إنْ رأى كولين حتى أنَّبَه على بقائِه طويلاً خارجَ المنزل لأنه بذلك يُتْعِبُ نفسَه. ولكنَّ كولين اعترضَ بشدّةٍ رأيَ طبيبِه. لاحظتْ ماري أنَّ كولين يتصرّفُ بشيءٍ من الفظاظةِ تجاهَ الآخرين. وشعرتْ بشيءٍ من الضّيقِ إزاءَ تصرُّفِه هذا. واعترفتْ ماري لكولين أنّها كانت تتصرّف بالطّريقة ذاتها عندما جاءت إلى القصر. ولكنّها سرعان ما بدأتْ تتكيّفُ مع مَنْ حولها. ربَّما كانت الحديقة هي مفتاح تغيُّر سلوكِها. وهذا ما شعرَ به كولين أيضًا عندما قال إنَّ في الحديقة سرًّا يجعله يُغيِّر طبيعتَه تمامًا. لعلَّ السرَّ يكمن في الاخضرارِ، ثمَّ في الأزهار وتلوّن الطّبيعةِ بألوانٍ بهيجةٍ متنوّعة.

أينَعتِ النّباتاتُ الّتي زرَعها كولين وماري. الأعشابُ تترعرعُ والورودُ تتباهي وتَزْدهي، مفعمةً بالحياةِ والإشراق. وكان كولين يتابعُ نموّها يومًا بعد يوم، بلْ وفي كلِّ لحظةٍ يُمضيها في الحديقةِ. كانتْ سعادتُه في متابعةِ كلِّ مظهرٍ من مظاهرِ التّغيُّرِ والنموِّ فيها، ومع المتابعة المستمرّة باتَ مقتنعًا بأنَّ العالَمَ يَكْتَنِفُهُ الكثير من الأسرارِ السّحرية. وهذا ما دعاه إلى أنْ يكتشفَ بنفسه بعضَ هذه الأسرار.

جمع كولين كُلاً من ماري والبستاني وديكون وراح يحدّثهم عن انطباعاته، وعن سرّ الطّبيعةِ وسحرها. فالسّحر الّذي شاهدَهُ في هذه الحديقةَ من خلال نموّ الأوراقِ والأزهارِ والنّباتاتِ يُعطيه زَخْمًا قَويًا للتّفكيرِ والحياة. وراحَ يُخاطبهم وكأنّه أستاذٌ يتحدّث إلى تلامذته بأنَّ السّحرَ، أو سرَّ الطّبيعة، أمرٌ نستطيعُ أنْ نَكْتَسِبه بالمِران والمتابعة. وقال كولين إنّه وجد السّحر في شروق الشمس، ونُموِّ الأزهارِ، والاستمرارِ في الحياة. «السّحر سِرٌّ كامنٌ فيَّ، وفي كلِّ واحدٍ مِنّا». كانَ الجميعُ يُصْغونَ إليه بدهشةٍ وإعجاب.

ومن أجلِ أنْ يُثْبت كولين ما طرأ عليه من تطوُّرٍ جذريٍّ ومن إدارةٍ سحريّةٍ عَزَمَ على أن يدورَ حولَ الحديقة على قدميه ومعه ديكون وحيواناته وماري. كانوا جميعًا أشبهَ بموكبٍ يسيرُ في مهابةٍ وجلالٍ، وكان على رأس هذا الموكب كولين.. يمشي وئيدًا واثقَ الخُطوةِ، وهو يردّدُ: «إنَّ السّحرَ يجعلني قويًّا.. إنّني أشعرُ بذلك!» استطاع كولين أنْ يُكْمِلَ الدورةَ كاملةً حولَ الحديقة. وانتابَه شعورٌ رائعٌ بالانتصار، وقال صائحًا: «هذا هو أوّلُ اكتشافٍ علميٍّ لي».

وطلب كولين من الجميع أن يُبقوا ما حقّقه اليومَ سرًّا بينهم. وقال إنه سيأتي إلى الحديقة على كرسيّه كالمعتاد ويعودُ عليه. إنّه لا يريدُ أنْ يعلم أحدٌ بسرِّه حتى يتأكّد من النجاحِ الكاملِ ويستكملَ قُدْرَتَهُ على المشي والرّكض كأيِّ ولدٍ آخر. إنّه يريدُ أن يفاجئ والدَه ذاتَ يومٍ ويقولَ له: «أنا في عافيةٍ تامّةٍ وسأعيشُ كي أكونَ رجلاً». كان كولين فخورًا بأنه لم يعدْ ذلك الولدَ الضعيف الخائر الّذي يخافُ والدُه من النّظرِ إليه.

«دَعيهما يضْحكان»

لم تكن الحديقةُ السرّيةُ ميدانَ نشاطِ ديكون الوحيد. فحولَ كوخِ أُسرتِهِ في البرّية كان ثمةَ قطعة من الأرض مُسَوَّرةٌ بالحجارةِ حيثُ كان ديكون يهتمُّ بمزروعاتٍ مختلفةٍ من الخُضَر مثل البطاطا والقُنَّبيطِ والجزرِ واللفتِ والأعشابِ من أجل والدته. وكان نتاجُه منها جيّداً من حيث الوزنُ والطَّعم بفضلِ عنايتِه الدءوبة. ولم يكن ديكون يكتفي بأصناف الخضر، بل كانَ يُحْضِر من وقت إلى آخرَ بذورَ الأزهارِ ليزرَعها فتُنْبِتُ كلَّ بهيجٍ من ورودٍ وأزهار. وكانتْ أمُّه سعيدةً وفخورةً بما يقوم به ابنها.

قصَّ ديكون على أمِّهِ بالتّفصيلِ كلَّ شيءٍ حولَ الحديقة السريّة، بدءاً من مفتاحها المدفونِ في التراب وانتهاءً بما طرأ على كولين من تحسُّنٍ ملموس في صحّته وحالتِهِ المعنويّةِ بعد أن باتَ يرتادُ الحديقةَ يوميًّا معه ومع ماري. وكانت الأمُّ سعيدةً مبتهجةً بما تَسْمَعُ من ابنِها، وراحتْ تُمْطِرُهُ بعشرات الأسئلة. وقالَ ديكون لأمِّه إنَّ كولين يريدُ أن يُبْقِيَ المعجزةَ الّتي تحقّقتْ بوقوفِهِ وسيرِهِ على قدميه سِرًّا لا يكشفُ عنه إلا عندَ عودةِ أبيه، وهو وماري يستمتعان بلعبة التّظاهر بأنّه ما زالَ عاجزاً، ثم ينفجران بالضّحك بعدَ أن يصبحا في مأمنٍ في الحديقة.

ضحكت الأمُّ بدورها من مَكْرِ الصّغارِ وقالتْ إنَّ الضحكَ مفيدٌ جداً لصحّةِ الغُلامِ. وازدادتْ ضَحكًا عندما عَلمَتْ من ديكون أنَّ ماري وابنَ عمها كولين يشعران بالجوعِ وبشهيّةٍ زائدة بسبب ما يبذلانِ من همّةٍ ونشاط. وعَزَمَتْ على أنْ تضع لهما بعضَ الحلوى تُرسِلُها لهما مع ديكون كلَّ صباحٍ. سُرَّ ديكون لاقتراحِ أمِّهِ وقال فرحًا: «أمّي الحبيبة، إنّكِ تجدين دائمًا حُلولاً لكلِّ شيء».

كانتْ ماري وكولين يستمتعان بـ «التّمثيلية» الّتي يلعبانها دَفْعًا للشّكوك من حولهما. ولقد كانتْ شُكوك الممرّضةِ والدّكتور كريفن حولَ أسبابِ ما طرأ من تحسُّنٍ ملموس على صحّةِ كولين هي ما دفعهما إلى متابعةِ هذه «التّمثيلية».

لاحظَ الدكتور كريفن ما طرأ من تحسُّن على صحّةِ كولين، وما اكْتَسبه من شهيّةٍ وزيادةٍ في الوزن. وحاولَ الطّبيبُ أنْ يعرفَ سرَّ هذا التّحول وأين يُمضي الفتي نهارَه، ولكنَّ كولين حاول أنْ يتملَّص مِنَ الإجابة. ولم يملكِ الطّبيبُ إلا أن يُثْني على ما حقّقه كولين من تقدُّمٍ في صحّته ونفسيّتِه. وقال إنَّ والدَه سيكونُ سعيداً إذا ما سَمِعَ بما اكْتَسبه من تحسُّنٍ كبير.

ولكنَّ كولين لم يكنْ راغبًا في أنْ يُطْلِعَ أحدٌ أباه على شيءٍ. وتظاهرَ بالغضبِ الشّديدِ لفكرةِ إعلامِ والدِهِ بأيِّ شيء. استجابَ الطّبيبُ لرغبته مُرغَمًا ووعدَه بألا يُعلم أباه شيئًا. ولكنَّ الشُّكوكَ ظلّتْ تُساوره. وهذا ما جعله يفكّرُ مع ماري في إيجادِ حيلةٍ ما

لاستبعادِ الشّبهةِ كأنْ يتظاهرَ بنوبةٍ جديدةٍ، أو يقلّل من شهيته للطّعامِ. ولكنّهما استبعدا كِلْتا الفكرتين. فقد كان كولين عازفًا عن محاولةِ التّظاهر بالنّوبةِ، فضلاً عن أن شهيّته الزّائدة واستمتاعَهُ بالطّعامِ كانا يقنعانهما بالعدولِ عن فكرةِ تقليلِ شهيّته. وكانَ أكثرُ ما يَطيبُ لهما ذلك الطّعام السّاخن واللّذيذ الّذي تُرْسِله لهما أمٌّ ديكون الرّائعةُ. وقال كولين: «إنها ساحرةٌ كابنها ديكون». وطلبَ إلى ديكون أنْ يبلغها جزيلَ شُكْرِهِ وامتنانِهِ جزاءَ سخائها الجمّ.

تفتّق ذهنُ ديكون عن فكرةٍ جديدةٍ هي أن يضعوا فرنًا صغيرًا من الحجارةِ في إحدى الفجواتِ حيثُ يشوون البيضَ والبطاطا، ويلتهمونها مع الزّبدةِ الطّازجةِ والملح. إنّهم يستطيعون شراء البيضِ والبطاطا ويتناولون ما يُرضي شهيّتهم. وسرعان ما وضعوا هذه الفكرة موضعَ التّنفيذ.

كان كولين يتابعُ تمارينَ المشي في الحديقة كلَّ يوم. وكانَ يزدادُ قوّةً وثباتًا يومًا بعدَ آخر. وذاتَ مرّةٍ قالَ ديكون إنه يعرف فتًى رياضيًّا ماهرًا وقويًّا، تعلّم منه كيفَ يقوّي عضلاته ويُمَرّنها. وراحَ يشرح لهما كيفَ اكتسبَ الكثيرَ من مهارةِ ذلك الفتى، وكيف ينبغي تأديةُ بعض التّمارين التي تُكسب العضلات قوّةً ومُرونة. سَعِدَ كولين بما سَمِعَ وراح يحاولُ هو وماري تقليدَ حركاتِ ديكون الرياضيّة. ومنذ ذلك الحين أصبحتْ تلك التمارين جُزءًا من نشاطهم اليومي صباحًا. وكانتْ هذه التمارين تمدُّهم بمزيدٍ من النّشاط والرغبةِ في الطّعام حتّى إنّهم كانوا يلتهمون ما يأتي به ديكون في

السلَّةِ في دقائق قليلة.

كانَ من الطّبيعي أنّ يجعلهم طعامُ الصبّاحِ الغَنيُّ، والطّعام الّذي يُحضّرونه في الفرن الذي صنعوه، يُصَدّون عن طعامِ المنزل. وهذا ما أوقعَ الممرّضةَ والطّبيبَ والسّيدة ميدلوك في حيرةٍ من أمرِهم ثانية. فقد كانتْ ماري وكولين لا يتناولان شيئًا من الطّعام، في حين أنّ صحّتهما كانت تبدو على خيرِ ما يُرام!

عندما عاد الدّكتور كريفن بعد غيابِ أسبوعين تقريبًا قضاهما في لندن، تفقّدَ صحّةَ كولين بعناية. ولاحظَ الطّبيبُ توردُّدَ خدّيهِ وإشراقةَ عينيه، والنّضارةَ الّتي تشعُّ من وجهه. واستغربَ ذلك التحسُّن الملحوظ الذي طرأ على صحّة كولين، مع أنّه عَلِمَ أنّه لا يطلبُ إلا القليلَ جدًّا من الطعام في الآونةِ الأخيرة.

لم تستطعْ ماري أنْ تكتُمَ ضِحْكتها وهي تسمعُ كولين يتحدّث عن شهيّته القليلة غيرِ الطّبيعية هذه الأيام. فهي وديكون هما الوحيدان اللذان يعلمانِ سرَّ شهيّةِ كولين الزائدة.

استفسر الدكتور كريفن من السّيدة ميدلوك عما إذا كان الطِّفْلان يتناولانِ شيئًا سرًّا. ولكنَّ السّيدة ميدلوك نفتْ ذلك. فهما خارجَ المنزلِ معظمَ الوقتِ.. في أحضانِ الطّبيعة. وقالتْ إنَّها تُشْرِفُ بنفسها على تحضيرِ الطّعامِ لهما. وعَزَتِ السّيدة ميدلوك تغيُّر الفتى الملحوظ، وكذلك صحّةَ ماري الّتي غدت أكثرَ إشراقًا وجمالاً إلى ضحكهما الهستيريٍّ، فقالَ الطّبيب كريفن وهو لا يزال مندهشًا: «دَعِيهما يَضْحكان».

السِّتارة

كانت الحديقةُ تزدهرُ وتزهرُ وتزدادُ أَلَقًا في كلِّ يومٍ، وتَكْشِفُ عن سِرٍّ من أسرار مفاتنِها. فقد فَرَّخَتْ أنثى طائرِ الحنّاءِ البيوضَ في عُشْها وجلستْ فوقَها تحضنُها وتخافُ عليها. وكان طائرُ الحنّاءِ يَشْعُرُ بأُلفةٍ غيرِ عاديةٍ مع ديكون، يَشْعُرُ كأنّهُ طائرٌ مِثْلُهُ لأنّه يفهمُ لغتَه.. و«يترغل» بها. ولم يكنْ يشعرُ مثلَ هذا الشُّعور في البدايةِ نحوَ ماري وكولين. وكانَ ينظرُ نحو الأخيرِ بشيءٍ من الحذرِ والاستغرابِ وهو يراه يمشي بصعوبة. وتذكَّر طائرُ الحنّاء تجاربَهُ الأولى في محاولة الطيران وكيفَ كانَ يتعثَّر مِثْلَه. وظنَّ أن هذا الفتى إنما يحاولُ أنْ يتعلَّم المشي الآن. ولكنَّ طائرَ الحنّاء لم يستطعْ أن يُفسِّر لأنثاهُ حركاتِ الأولادِ الثّلاثةِ الغريبة، عندما كانوا يَقِفُون تحتَ الأشجارِ ويحرّكون أيديَهم وأرجلَهم ورؤوسَهم بطريقةٍ لا تُشْبِهُ المشي أو الرَّكض. ولكنَّ مشاركةَ ديكون الولدين الآخرين جعلته يطمئنّ إلى عدمِ وجودِ ما يَبْعَثُ على الخوفِ من هذه الحركات.

كانَ كولين وماري يشعران بشيءٍ مِنَ الكآبةِ فى الأيّام الماطِرةِ، لأنها تَحْبِسُهما عن الخروج إلى أحضان الطّبيعة. وكان كولين يشعرُ برغبةٍ مُلحَّةٍ حتّى في تلكَ الأيّام بالخروج.. يشعرُ وكأنَّ زقزقةَ

العصافيرِ المبتهجةِ تُناديه، والطّبيعةَ تُناديه . . فكأنّه يريدُ أنْ يقفزَ من سريرِه لـمُلاقاتها. لكنَّ ماري حاولتْ أنْ تخفّف من حماسِهِ كَيْلا يَلْفِتَ الأنظارَ بخروجِهِ، فتُسارِع السّيدة ميدلوك إلى استدعاء الطبيب.

كان كولين يتحرَّقُ إلى عودةِ أبيه ليزِفَّ إليه بنفسه الخبرَ السّعيدَ. . خبرَ قدرتِهِ على النُّهوضِ والسّيرِ بمفردِه. لقد ملَّ الانتظارَ والتّظاهرَ بالعَجْز.

وهنا طرأت لماري فكرةٌ تَشُدُّ انتباهَ كولين. قالتْ له إنَّ في هذا المنزل ما يقاربُ مئةَ غرفةٍ لا يدخلها أحد. اندهشَ كولين لـمَا سَمِعَ وشعر وكأنَّ في الأمرِ سرًّا آخر يشبه سرَّ الحديقة. وراقت الفكرةُ لكولين وطلبَ إلى ماري أنْ تجرَّه على كرسيِّه المتنقِّل بحيثُ يتجولان بين الغرفِ دون أنْ يعلمَ بهما أحد. وهذا ما كانتْ تُفكِّر به ماري أيضًا.

لم يُضِعْ كولين وقتًا لتنفيذِ الفكرةِ فقد طَلَب من الممرّضة أن تُحضِرَ له كرسيَّه. وأعطى تعليماتِه بألا يتعقّبه أحد. فهو وماري يريدان أن يتفقّدا بعضَ جوانبِ المنزل.

ما كادَ كولين يصلُ مع ماري إلى الغرفةِ المُزْدانة بالتُّحف واللّوحات حتّى نهضَ من كرسيّه وراح يجري فَرِحًا من زاويةٍ إلى أُخرى. وانصرفا بعد ذلك إلى تأمُّل صورِ الوجوه. وقال كولين: «لا بدّ أن يكونَ هؤلاء جميعًا أقربائي. . أمّا تلك الفتاةُ الصّغيرةُ الّتي تحمل

بَبَّغاءَ فلا بدَّ إنّها إحدى عمّاتكِ البعيدات.. فهي تُشْبِهك».

ثم انتقلا إلى الغرفةِ الهنديّة حيثُ الفيلةُ المصنوعةُ من العاج. وتابعا زيارةَ الغرفِ واحدةً بعدَ أُخرى، وفي كلّ واحدةٍ كانا يكْتشفان أشياءَ جديدة. وشعرا بالثقة والتسليةِ وهما يتجوّلان ويكتشفان أشياء ساحرةً تنتمي إلى عهودٍ قديمة.

قال كولين مَشْدوهًا: «أنا سعيدٌ بهذه الجولةِ. ما كنتُ أعرفُ أبدًا أنّني أعيشُ في مكان عتيقٍ وغريبٍ كهذا. سنأتي إلى هنا في كلّ يومٍ ماطر.. فثمّةَ الكثيرُ من الزوايا والخبايا».

وعادا إلى غرفةِ كولين ليتناولا طعامَهما بشهيّةٍ زائدةٍ حتّى مسحا الصحون، الأمرُ الّذي أثارَ دهشةَ الخادمةِ والطبّاخة معًا.

لاحظتْ ماري أنَّ أمرًا جديدًا قد حَدَثَ في غرفةِ كولين بعد ظهرِ ذلك اليوم. فقد حدَّقت بإمعانٍ بالصّورةِ فوقَ رفِّ الموقدِ، ولاحظت أن السّتارة قد أُزيحتْ جانبًا. أدركَ كولين أنَّ ماري قد لاحظت هذا التغيير، وقال إنّه يعرفُ دائمًا عندما يكون هناك أمرٌ ما يدور في خاطرها. وأضافَ بأنّه هو الّذي أزاحَ السّتارة. وعندما سألته ماري عن السّبب قال: «لَمْ أعُدْ أشعرُ بالغضبِ لرؤيتها تضحك. لقد شعرتُ في الليلتين المقمرتين الماضيتين وكأنَّ السّحر يملأ الغرفةَ، ويجعل كلَّ ما فيها رائعًا. وعندما جذبتُ حبلَ السّتارةِ شعرتُ بها تضحكُ لأنّها كانتْ سعيدة بوقوفي».

قالت ماري: «إنّك تُحبُّها الآن حتى إنّني أشعرُ أحيانًا بأنّك ظِلُّها على الأرض». أثَّرت كلماتُ ماري في كولين، وقال بعدَ تفكيرٍ: «لو كنتُ ظلَّها لكانَ والدي قد شُغِفَ بي». وسألته ماري: «وهل تريدُه أنْ يكون شغوفًا بك؟»

قال كولين: «اعتـدتُ أنْ أكرهه لأنّه لم يكنْ يحبُّني، ولكنّه إذا أحبَّني فسأخبرُه عن السِّحر، وهذا ما قدْ يجعله أكثرَ ابتهاجًا».

إنها أمي

وصلَ ديكون ذلك الصّباح إلى الحديقةِ متأخّرًا عن عادتِه. وما إنْ وَصَلَ حتّى شرَعوا جميعًا بالعمل، فقد كانَ عليهم أنْ يقوموا بكثيرٍ من أعمالِ التّعشيبِ بعدَ الأيامِ الماطرة. وكان كولين يعملُ معهما بهمّةٍ ونشاطٍ كأيٍّ واحدٍ منهما. وقال بأسلوبٍ خَطابيٍّ وكأنّه يُلْقي محاضرةً: «السِّحرُ يفعلُ مفعولَه عندما تقومُ أنتَ نفسُك بالعملِ.. تستطيعُ أنْ تحسَّ به في عظامِكَ وعضلاتِك». وأعلن كولين عن رغبتِه في وضع كتاب عن «السِّحر»، وهو يتابعُ اكتشافاتِه من أجلِ هذه الغاية.

انتابَ كولين فجأة شعورٌ قويٌّ بالصِّحةِ والنّشاطِ، جعلَه يضعُ المجرفَةَ جانبًا، ويخاطب ماري وديكون بسعادةٍ غامرة، وقد انتصبتْ هامتُه وبرقَتْ عيناه: «أنا في عافيةٍ تامّة! أنا في عافيةٍ تامّة!» هذه الكلمات قالها كولين من قبل، ولكنه شعر هذه المرة بثقةٍ كاملةٍ وقناعةٍ أكيدةٍ بما يقول، وهذا ما جعَلَه يصيحُ فرحًا: «سأعيشُ إلى الأبد!»

اقترحَ البستانيُّ على كولين وقد رآه فَرِحًا مُستبشرًا بما تحقَّق له من معجزاتٍ أن يغنّي «الترتيلة» الدينيّة الّتي تتضمّن الشكرَ لله. ولكنَّ كولين لم يكنْ يعرف شيئًا عن هذه الترتيلة ولم يزرْ أيةَ كنيسةٍ في حياته، لذا طلب من ديكون أن يُنْشد له هذه الترتيلة.

قـال ديكون وهو يـشـرحُ مـعنى هذه التـرتيلة إنهـا شـيءٌ أشبـهُ بالتسبيح، ولا يقتصرُ ترديدُها على البشر. فأمُّه تقولُ إنَّ طائرَ القبَّرة يُسَبِّحُ أيضًا عندما يستيقظُ في الصّباح.

استجابَ ديكون لطلب كولين، ووقفَ بين الأشجارِ والورودِ وراحَ يُنشد بصوتٍ قوي:

« سبحانَ اللّه مانحِ البركاتِ جميعًا

يُسبِّحُ له كلُّ ما على الأرض

يُسبِّحُ له كلُّ مَنْ في السّماءِ »

ارتاحتْ نفسُ كولين لسماعِ هذه التّرتيلةِ، وقال إنّها تعبِّرُ عمّا يدورُ في بالِه. وطلبَ إلى ديكون أن يُنشدَها ثانيةً لأنّه يريدُ أن يردِّدها مع ماري وراءَه. وراحَ الجميعُ يُنْشِدُون بابتهالٍ، وانضمَّ إليهم البستانيُّ بصوتِه الأجشّ.

فُتح فجأة بابُ الحديقةِ ودلفتْ منه امرأةٌ وهم ينشدون آخرَ سطرٍ من التّرتيلة.

أخذت المرأةُ تَنْظُر إليهم برقّةٍ وحنانٍ وهم يُنْشِدون. كان وجهُها يشعُّ نوراً وحبوراً. ولم يَشْعُرْ أحدٌ منهم بأنّها غريبةٌ أو مُتطفِّلة. كانتْ أشبهَ بصورةٍ جميلةٍ من صورَ كتب كولين الملوّنة.

صاحَ ديكون وقَدْ لمعتْ عيناه: « إنّها أمّي! »

اتّجه كولين وماري نحوَها بقلبين خافقين. صاحَ ديكون ثانيةً:

«إنّها أمّي! لقدْ عرفتُ أنها تريدُ أنْ ترى الحديقة.. وأخبرتُها عن مخبأ الباب».

قال كولين برقّة: «حتّى عندما كنتُ مريضًا كنت أودُّ أنْ أراكِ، كنتُ أتطلّع إلى رؤيةِ ثلاثة فحسب: أنتِ وديكون والحديقة السرّيّة».

قالتْ له والدةِ ديكون، وقد ترقرقَ الدَّمعُ في مآقيها: «آه يا ولدي الحبيب!» ارتاح كولين لأنّها تخاطبه كما تخاطِبُ ابنَها. سألَها ما إذا كانتْ مُندهشةً لرؤيته في عافية. وضعتْ يدها على كَتِفِهِ وابتسمتْ له قائلةً: «إنّك تُشْبه أمَّك إلى درجةٍ كبيرةٍ».

فسألها كولين بشيءٍ من الارتباك: «هل تعتقدين أنَّ هذا سيجعل والدي يحبّني؟» أجابته وهي تربِّتُ على كتفِه برقّة: «بالتّأكيد يا ولدي الحبيب.. لا بد أن يعود إلى المنزلِ.. لابدَّ أن يعود..».

اقتربَ البُسْتانِيُّ من أمِّ ديكون وقالَ يخاطبها: «سوزان سودربي انظري إلى ساقَي الغُلامِ. لقد كانتا أشبهَ بالعَصَوَيْن قبل شهرين.. انظري إليهما الآن!».

ضحكتْ سوزان سودربي بارتياح وقالتْ: «ستكونان أقوى بكثير عمّا قريب. دعْه يَلْعَبُ ويعمل في الحديقة، ويأكل بشهيّة ويشرب الكثيرَ من الحليبِ المُحلّى وسيكونُ له أقوى ساقين في يوركشاير، والحمد لله على ذلك».

ثم وضعتْ يديها على كَتِفي الآنسة ماري ونظرتْ إلى وجهها

الصّغير بحنان الأمِّ، وقالت: «وأنتِ أيضًا لقد كبرتِ فأصبحت قويّةً مثلَ ابنتي ليزابيت إيلين. إنّك تُشْبهين أمّك كما سمعت. ستصبحين كالوردةِ النّضرةِ عندما تكبرين.. باركَ الله فيك يا بُنَيَّتِي الصغيرة».

جالتْ سوزان سودربي معهم في أرجاءِ الحديقةِ، وسمعتْ منهم قصّتها كلَّها. كانتْ سعيدةً بكولين وماري، وكانا سعيدين بها. أحسَّتْ أنَّها تفهمُهما كما يفهمُ ديكون حيواناتِه. وكانتْ تتجاذبُ معهما أطرافَ الحديثِ وهم يتابعون جولتَهم في الحديقة، ويتوقّفون عند كلِّ مشهدٍ طريفٍ أو شجرةٍ وارفة. سألها كولين: «هل تُؤمنين بالسِّحر؟» فقالتْ له أم ديكون: «لقدْ سمعتُ عنه ولكن لا يهمُّ ما اسمه إنه القادر على فعله وأكثر منه.. إنّه القدرةُ الخلاقة.. إنه تلكَ الطاقةُ العظيمةُ الّتي تجعلُ النّباتَ ينمو والشمسَ تُشْرق. إنْه مَنْ كنتم تسبِّحون له عندما دخلتُ الحديقة».

عبَّر لها كولين عن سعادتِه الغامرةِ وهو ينظر إليها بتمعّن. وشرحَ لها كيف أصبحَ قويًّا فجأةً، وكيف اشتدَّ عودُه وباتَ يستطيعُ أنْ يقفزَ ويحفرَ ويلعب.

جلستْ أم ديكون معهم عندما حانَ وقتُ الطّعام.. إنّه الطعامُ الّذي تُحْضِره لهم كلَّ يوم. وراحتْ تُراقبهم وهم يلتهمون طعامَهم بشهيّةٍ زائدةٍ فتضحكُ من الأعماق. وكانتْ تحكي لهم حكايات من يوركشاير وتُعَلِّمهم كلماتٍ جديدة.

كانوا جميعًا في غاية السّعادة يتضاحكون ويمرحون ويقصّون عليها بعضَ طرائفهم وما يجري لهم من أحداث.

تمنّت لهم أمُّ ديكون السّعادةَ والبركة، وقالت إنها تتوقّعُ أنْ يعودَ السّيد كريفن إلى الوطنِ قريبًا. وقالت لكولين بأنَّ عليه أن يستعدَّ لإخبارِ والدِه بالأخبارِ المُفْرِحَةِ عن صحته قبل أيّ شخص آخر. فقالَ لها كولين إنَّ هذا ما يُفكِّر به ليلَ نهار، وهو يتوقُ إلى أن يركضَ إلى غرفتِه في هذه اللحظة.

تحدّثوا بعد ذلك عن الزّيارة المرتقبة لكوخِ أسرةِ ديكون. ورتّبوا كلَّ شيء استعداداً لقضاءِ يومٍ كاملٍ مع إخوةِ ديكون في البرية حيث يتناولون طعامَ الغداء.

قال كولين للسّيدة سوزان، وهي تهمُّ بالنّهوضِ استعداداً للعودةِ، ناظرًا إليها بإعجابٍ ومودّة: «إنّكِ كما تمنيتُ أنْ تكوني تمامًا. بودّي لو أنّك أمّي مثل ديكون!» ضمّته السّيدة سوزان بحنانٍ إلى صدرها كما تضمُّ ابنها، وذرفتْ دمعةً حرّى من عينيها، وقالتْ له: «آه يا ولدي الحبيب. إنَّ أمّك موجودةٌ في هذه الحديقة. أنا مؤمنةٌ بذلك. إنّها لا تستطيعُ أن تُفارِقَها. ولا بدَّ أنْ يعودَ والدُك إليكَ.. لا بدّ!»

في الحديقة

لكلِّ قَرْنٍ مكتشفاتُه الرّائعة، وقد حَفَلَ القَرنُ الأخيرُ بمكتشفاتٍ مذهلة. من بين هذه المكتشفاتِ معرفةُ النّاس أهميّة الأفكار وقوةِ تأثيرها. إنّها أشبهُ بالمدّخرات الكهربائيّة القويّةِ الّتي قد تدفعُ نحو الخيرِ أو نحو الشرّ. لقد كانتْ أفكارُ ماري مثلاً، في البداية، أفكاراً غيرَ مقبولةٍ عن نفسها وعن الآخرين، وهذا ما جعلها شاحبةً مُضجرةً وسيّئة. وعندما تغيَّرت أفكارُها بفعلِ الظّروفِ الحَسنةِ الّتي أحاطتْ بها تغيَّرتْ نفسيّتُها وتغيّر سلوكُها، وباتتْ محبوبةً مِمَّن حولها.

كذلك كانَ الأمرُ بالنّسبةِ لكولين الّذي أغلقَ بابَ غُرفتِه على نفسِهِ ولم يعدْ يفكّرُ إلا في مخاوفِه وضعفِه وكراهيةِ مَنْ حوله له. وعندما بدأتْ أفكارُه السّيئة تتغيّر بالتّدريجِ ليحلَّ محلَّها أفكارٌ جديدةٌ متفائلةٌ بالحياة تغيَّرت نفسيتُه، واشتدَّ عودُه، وبات مُحبًّا للحياة متمسّكًا بها.

أما بالنّسبةِ إلى إرشيبالد كريفن، سيِّدِ القصرِ في «ميسيل ثويت»، فقد كانَ الوضعُ مختلفًا. كانَ جوّابًا للآفاق محبًّا للسّفرِ والحياة. كان يرى كلَّ ما حولَه جميلاً. وفجأةً أصابَه غمٌّ شديدٌ جعله مُتَشَائمًا دائمَ الكآبة. وكانَ مزاجُه السوداويُّ يَنْعَكِسُ على كل مَنْ حوله، حتى ظنّوا أنَّ به مَسًّا من جنون.

سافرَ بعيداً منذُ ذلك اليوم الّذي قابل فيه ماري في مكتبه وقالَ لها إنّ بوسعها أنْ تحصلَ على «قطعةٍ من الأرض». طافَ في أجملِ بقاعِ أوروبا، ولكنّه لم يكنْ يمكُثُ في أيٍّ مكان إلا بضعةَ أيّام. كان يختارُ دومًا الأماكنَ الهادئةَ، والنائيةَ، والقممَ الشاهقة. ومع كلٍّ ما يحيط به من جمالٍ لم يكن النُّور يدخلُ إلى قلبه الّذي ظل كامداً منغلقًا.

ولكنَّ المعجزةَ تحقّقت ذاتَ يومٍ عندما شعرَ لأوَّلِ مرّةٍ طوالَ عشرِ سنواتٍ بشيءٍ غريب يَدِبُّ في حناياه. كانَ ذلك في وداي «التيرول» النّمساويّ السّاحرِ بينما كان يمشي وحيداً يحيطُ به سِحْرُ الطّبيعة. جَلَسَ ليستريحَ من عناءِ سيرٍ طويلٍ عند حافةِ جدولٍ فوقَ بساطٍ من العُشب. أحسَّ بنسائمَ رقيقةٍ تُنْعِشُ رُوحَهُ. كانَ لسِحْرِ المكان والسكينةِ من حوله فعلُ السّحر في نفسه. وعندما نَهَض أخيراً شَعَرَ وكأنّه يستيقظُ من سُباتٍ عميق.. وكأن شيئًا يتحرّر داخلَ ذاته. وقالَ مندهشًا يُخاطب نَفْسَه: «ما هذا؟ أشعرُ وكأنّني عُدتُ إلى الحياة!».

لم يدرِ ماذا طرأ عليه فجأة. ولكنّه تذكّر تلكَ السّاعةَ الغريبةَ عندما سَمِعَ بعدَ أشهرٍ بالصُّدفة ابنه كولين وهو يصيحُ: «سأعيشُ إلى الأبد.. إلى الأبد!»

ظلَّ يتأرجحُ فترةً من الوقتِ ما بين التّشاؤم التّفاؤل. ولكنَّ الشّعورَ بالعودةِ إلى الحياة كان يتسرَّب إلى رُوحِهِ أكثر فأكثر. وباتَ يشعُرُ شيئًا فشيئًا أنَّ أحلامَه لَمْ تَعُدْ مزعجةً وأنّ نومَه باتَ أفضل.

وكانتْ تراودُهُ، وهو يتابعُ تَجوالَه في ربوعِ أوروبا السّاحرة، أفكارٌ بالعودةِ إلى بلدتِه، وأسئلةٌ مُبْهَمةٌ حولَ ابنه العاجزِ المريض. وكانتْ نفسُه تنقبضُ عندما يتذكّر كولين بوجههِ الشّاحبِ وهو قعيدُ الفراش.

عادَ السّيد كريفن ذاتَ ليلةٍ مقمرةٍ ساحِرَةٍ إلى دارتِه. وشعرَ برغبةٍ في أنْ يجلسَ عندَ حافةِ البُحيرة يستنشقُ النّسيمَ العليلَ ويتمتّع بسحرِ الطّبيعة وسكونِها العجيب. ولم يلبث أنْ غفا على مقعده.. ورأى في منامه أنّه يسمعُ صوتًا يناديه. كانَ صوتًا عَذْبًا وجَذلاً وبعيداً: «أرشي! أرشي..» وكان الصّوتُ يزدادُ عذوبةً ووضوحًا. ورأى نفسَه يردُّ على النّداء: «ليلياس! ليلياس! أين أنتِ؟» وسمعَ صوتًا أشبهَ بعزف الناي يُجيبه: «في الحديقة!».

انتهى الحُلُم ولم يستيقظْ. نامَ نومًا هانئًا طوالَ تلك الليلة الساحرة. وعندما استيقظَ في صباحِ اليوم التّالي وجدَ الخادم أمام سريرِه وهو يحملُ بعضَ الرّسائل على صينيةٍ من فضّة. كانَ لا يزالُ تحتَ تأثيرِ حُلُمِ ليلةِ أمس. وراح يردّد بدهشةٍ: «في الحديقة!» وراح يتساءَل: «في الحديقة! ولكن كيفَ والبابُ مُوصَدٌ ومفتاحُهُ مَدْفُون!»

وعندما نَظَرَ إلى الرّسائلِ، وجد واحدةً باللغة الإنجليزية مُرْسَلة من يوركشاير. كانت مكتوبةً بخطٍّ نسائي. فتحَها وهو يتساءَل عن المُرْسِلة. وسُرْعان ما لفتتْ كلماتُها انتباهَه.

كانت الرّسالة من أمِّ ديكون تَرْجوه فيها أنْ يعودَ إلى البيت، فثمّة

أشياءُ كثيرةٌ ستُسْعِدُه. واستسمحتْه قائلةً إنَّ زوجتَه لو كانتْ على قيد الحياةِ لطلبتْ مه الشَّيءَ ذاتَه.

قَرَأَ السَّيد كريفن الرّسالةَ مرّتين قبلَ أنْ يُعيدَها إلى مُغَلَّفِها. وقرر السّيد كريفن أن يعود إلى بَلْدَتِهِ في الحال.

استغرقَ وصُولُهُ إلى يوركشاير بضعةَ أيام. وكانَ طوالَ رحلتِهِ الطّويلةِ بالقطار يُفكّرُ في كولين باستمرار. وراح يستعرضُ شريطَ حياتِهِ منذُ ولادته ووفاةِ أمّه. وتذكّر كيفَ أنّه لم يكنْ راغبًا في رؤيتِهِ، وكيفَ كان كلُّ مَنْ حولَه يعتقدُ أنّه سيموتُ قريبًا. لم يكنْ يشعرُ بحنانِ الأبِ نحوَه. كان يشعرُ بالرّغبة في الابتعادِ عنه، وإنْ لم يقصّرْ يومًا في مدِّه بأسبابِ الرعاية. كانَ يعتقدُ أنّه ولدٌ عاجزٌ شبه مجنون. وراحَ يُراجع موقفَه منه طوالَ السّنواتِ العَشْرِ الماضية. لعلّه كانَ مُخْطِئًا. ولكنْ ربّما فاتَ الأوانُ لتصحيح هذا الخطأ! وحاولَ أنْ يطردَ الأفكارَ المتشائمةَ من رأسه، ويفسّر رسالةَ أمِّ ديكون إليه بأنها مدعاةٌ للتفاؤل. وعزمَ على أن يمرَّ عليها في طريقه إلى «ميسيل ثويت».

عندما وصلَ السّيد كريفن إلى كوخِ السّيدة سوزان سودربي لم يجدْها. وأخبرَه أطفالُها الصّغارُ أنها ذهبتْ إلى الطّرف الآخر من البرّية لتساعدَ امرأةً على وضعِ حَمْلها. وتطوّعَ الأطفالُ بإخبارِهِ أنَّ شقيقَهم ديكون يعملُ في إحدى الحدائقِ عنده، وأنّه يذهبُ إلى هناك عدّةَ أيّامٍ في الأسبوع.

سُرَّ السّيد كريفن للقاء الأولاد الودّيّ الذين كانت وجوهُهم تَطْفَح بالصحّة والعافيَةِ. وأخرجَ من جيبِه قطعةَ نقودٍ ذهبيّةً وأعطاها إلى كُبْرى البناتِ والصبيان.. ليزابيت إيلين.

كان شعورُه مختلفًا هذه المرّة وهو يشقُّ طريقَه بالعربَة عَبْرَ البرّية. إنّه يشعرُ بنوعٍ من الحنين لم يعرفْه من قبل. وعاد يفكّر في بَيْتِه المُوحِشِ بغرفِه المغلقة وابنِهِ الرّاقدِ في الفراش. أتُراه تحسَّنَ قليلاً؟ أتراه يستطيعُ أن يتودّد إليه؟ وتذكَّر الحلمَ الجميلَ الذي رآه عندَ ضفافِ بحيرةِ كومو في إيطاليا.. وتلك الكلمات السّحرية تأتيه من بعيد: «في الحديقة! في الحديقة!» وخَطَر في بالِه أنّه لا بدَّ أنْ يجدَ مفتاحها، ويفتحَ بابَها، وإنْ كان لا يعلمُ لماذا!

عندما وصلَ إلى «مانور» لاحظ الخدمُ الّذين خَفّوا إلى استقبالِه أنّه يبدو في وضعٍ أفضل. لم يتوجّه كعادتِهِ إلى غرفتِه النائية، بل توجّه إلى المكتبةِ واستدعى على الفورِ السّيدة ميدلوك ليسألَها عن صحّة كولين. وحارت السّيدة ميدلوك بماذا تُجيبه. كلُّ ما استطاعتْ أنْ تقولَه إنَّ أمرَه غريبٌ. إنّه مختلف. ولكن لا الطّبيبُ ولا الممرّضةُ ولا هي يستطيعون أن يفسّروا سرَّ ما طرأ عليه. وحكتْ له كيفَ باتَ يُصِرُّ بعد إحدى نوباتِهِ على الخروجِ في كلِّ يومٍ مع ماري وديكون ابنِ السّيدَةِ سودربي الّذي كانَ يجرُّ له كرسيَّه.. وهو يبقى في الخارجِ من الصباح حتّى المساء.

وقالت السّيِّدة ميدلوك: «إنّ الطبيبَ كريفن يرغبُ في لقائك إذا سمحتَ له. إنّه في حيرةٍ شديدةٍ منْ أمره». وعندما سألها السّيد كريفن أينَ ابنُه الآن، أجابته بأنّه في الحديقة، فهو دائمًا هناك. وهو لا يسمحُ لأحدٍ أن يتعقّبَه.

صَرَفَ السّيد كريفن مُدَبِّرة المنزل وراحَ يردّد: «في الحديقة!» وعندما استفاقَ من ذُهوله راحَ يشقُّ طريقَه إلى الحديقةِ عبرَ الدّربِ الّذي سَلَكَتْهُ ماري أوّل مرة. وعندما اقتربَ من بابِها المخفيِّ الّذي يَعْرفُه جيّدًا أبطأ خطواته، ثمَّ توقّف، وتسمَّر في مكانِه وهو يتطلّع حولَهُ. إنّه يسمعُ أصواتًا خلفَ سورِ الحديقةِ المهجورة! إنّها أصواتُ أقدامٍ تجري.. أصواتٌ غريبةٌ مكتومةٌ.. وصيحاتٌ مرحةٌ. إنّه صوتُ ضحكاتِ أطفالٍ يمرحون.. ما الّذي يَسْمعُه بحقِّ السّماء! هل فَقَدَ عَقْلَهُ وراحَ يتخيّل سماعَ أصواتٍ لا تسمعُها آذانُ بشر؟!

اقتربت الأصواتُ من بابِ الحديقة.. كانتْ أعلى والخطواتُ أسرع. إنّه يسمعُ صوتَ أنفاسٍ تَلْهَثُ وضحكاتٍ عاليةٍ لا يمكن كتمانُها. وفجأة انفتحَ البابُ، وانشقَّ السّاترُ الّذي صنعتْه أوراقُ اللبلاب عن ولدٍ يندفعُ بسرعةٍ وقوّة.. واصطدمَ به دون أنْ يراه.

مدّ السّيد كريفن ذراعيه كي ينقذَ الغلامَ من السّقوط. وعندما رفَعَهُ لينظرَ إليه مدهوشًا لم يستطعْ أن يلتقطَ أنفاسَه.

كانَ ولدًا طويلاً ووسيمًا، يشعُّ وجهُه نضارةً وحيوية. واضطرب

السّيدُ كريفن وهو يرفعُ شعرَ الغلامِ الكثيفِ عن جبهته.. وينظرُ إلى عينيه المشرقتين.. وقال متلعثماً: «مَنْ.. ماذا؟ مَنْ!»

لم يكنْ هذا كولين الّذي توقّع رؤيتَه. لم يكنْ يتوقّع أبداً مثلَ هذا اللقاء..

صاحَ كولين: «والدي. إنني كولين. قد لا تُصدِّق عينيك. نَعَمْ أنا كولين».

وراحَ الأبُ يردّد مذهولاً: «في الحديقة! في الحديقة!»

قال الغلام بعجلة: «نعم إنها الحديقةُ الّتي فعلتْ بي ذلك. الحديقةُ، وماري وديكون.. والسِّحر. لا أحدَ يعرفُ بما جرى لي. لقد أبقينا ذلك سرّاً إلى حين عودتِك. أنا على خيرِ ما يرام، وأستطيعُ أن أتفوّق على ماري في السِّباق. سأصبحُ رياضيّاً». كانتْ روحُ السّيد كريفن تعتزّ سعادةً وحُبوراً وهو يستمعُ إلى كلماتِ ابنه المعافى ويتأمّلُ وجهَهُ المتورِّد.

وضع كولين يدَه في يدِ أبيه وقالَ له: «ألستَ سعيداً يا والدي؟ سأعيشُ إلى الأبد.. إلى الأبد!»

بدا الأبُ عاجزاً عن الكلامِ وهو يحتضنُ ابنَه. تمالكَ نفسَه أخيراً وقالَ: «خذْني إلى الحديقةِ يا بُنيَّ. احكِ لي كلَّ شيءٍ عنها».

ودَخَلَ الحديقة. كانت أزهارُها وأشجارُها ونباتاتُها تَزْدانُ بألوانِ



قوسِ قُزحَ. وتذكَّر الحديقةَ أيّام بهجتِها وراحَ يتأمَّلُ ويتأمَّلُ فيما حولَه صامتًا، والأولادُ يحيطون به.

جَلَسَ الجميعُ تحتَ شجرتِهم المفضَّلة، عدا كولين الّذي أصرَّ على الوقوفِ كي يقصَّ على والده كلَّ ما طرأ من أحداثٍ وتطوّراتٍ في غيابِه.

كانتْ قصّةُ كولين أعجبَ شيءٍ سمعه أرشيبالد كريفن في حياتِه. قصةٌ مفعمةٌ بالغموضِ والسّحر تتناولُ موضوعاتٍ شتّى: من الحيواناتِ البرّية إلى لقاءاتِ اللّيلِ السّرية، إلى سحرِ الطّبيعةِ، إلى الأسرارِ الّتي حَرَصَ الصّغار على كِتمانِها. وكان السّيد كريفن يضحكُ ويضحكُ حتّى تترقرق دموعُ الفرحِ في مآقيه. وخَتَمَ كولين قصّته قائلاً: «والآن لم يعدْ ثمةَ حاجةٌ للأسرار.. لن أستعملَ الكرسيَّ المتحرِّكَ بعدَ اليوم أبداً. سأمشي خلفَك يا والدي إلى البيت».

عَلِمت السّيدة ميدلوك أنَّ الأولادَ والسّيد كريفن كانوا في الحديقة. وقالَ لها البستانيُّ إنَّ الموكبَ قادم. وقفت السّيدة ميدلوك ومعها باقي الخدم ينتظرون قدومَهم بمزيدٍ من الفُضولِ. وحُبٌّ الاستطلاع. شَهِقَ الجميعُ عندما رَأَوا كولين يمشي إلى جانبِ والدِه.. منتصبَ القامةِ رافعَ الرأس.. إنّه سيِّدُ ميسيل ثويتْ الجديد.. السيد كولين.

هذه
الرواية

❖ توفي والد ماري لينوكس وهي بعد في العاشرة من عمرها، فعاشت في القصر الكبير وحيدة لا أصدقاء لها، فلم تألف الناس أو تحبهم. عندما قصدت منزل عمتها في الريف تغيرت حياتها، اكتشفت مكاناً كله سحر وغموض، واكتشفت ما هي الصداقة، وتعرفت إلى الآخرين، وتعلقت بالحياة في الحديقة السرية.



سفير دار العلم للملايين